عبد القادر بومعزة

بسكرة
في عيون الرحالة الغربيين

الجزء الأول

عنوان الكتاب : بسكرة في عيون الرحالة الغربيين ج1

المؤلف : عبد القادر بومعزة

طبعة الأولى 2016

الإيداع القانوني :

ردمك :

دار علي بن زيد للطباعة و النشر ــ بسكرة ــ الجزائر


بسم الله الرحمن الرحيم

شكر و تقدير

أقدم تشكراتي و عرفاني بالجميل و دعواتي القلبية للسيد الفاضل عبد الناصر أقشيش الذي تحمل أعباء طبع هذا الكتاب ، فجزاه الله أحسن الجزاء بما قدمه من جميع الصنع و بارك الله تعالى في أوقاته وحياته وأحاطه بعنايته في حركاته و سكناته وسائر تصرفاته

ديباجة الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين وبعد:

ففي مدينة بسكرة - حيث مبحثي الموجز هذا – يتداخل ويمتزج التراث بالمعاصرة، والأصالة بالتقليد، والعراقة بالحداثة، والضوء بالظل، والابداع بالاتِّباع حتى لا تكاد تسطيع فك آواصرهما المتشابكة تشابك الخِلّ المدَّخَر لخِلِّه، والعاشق المتيم والمتمم لمعشوقه.

وحيث يمتاح الاجتهاد دواخل النص فيستنطقه، ويسبر التحليل عمق المتن فيستظهره، ويجلّي الاستنباط محتوى الشكل فيستشفّه.

وحيث تتآزر علوم اللغة العربية وفقهها، والبلاغة ومتونها، والنقد الأدبي وأصوله، والتفسير ومدارسه، وأصول الفقه وقواعده، وتصورات المنطق وتصديقاته، متعاضدة كلها ومؤتلفة مع فنون النسج وصياغاته، والعقل وبديهياته، والمنهج وآلياته، على تحليل الخطاب، والغوص في تراكيب النص، لسبر أغواره، واستظهار مكنوناته، واستكناه تجلياته، وتفكيك تعقيداته، وحل إشكالياته.

في مساجد ومدارس بسكرة تتفرع عن الأسئلة الأسئلة لتتراكم على الحلول الحلول، وفي معاهدها تنثال الاحتمالات على الاحتمالات لتتوالد من البراهين البراهين. ويتناغم في بحوث مدارسها العلمية الحس والوجدان والحدس، ويتحاور في اجتهادها عقل المعرفة ونقلها،

وظاهر المقولة وباطنها، ومحكم آيات الله ومتشابهها، حواراً يفكك فيه العقل والنظر متن النص والأثر، ثم يعيد تركيبه صعوداً نحو استيحاء المضمون واستنطاق الدلالة، واستنباط الحكم.

في صباحات عروس الزيبان بسكرة يستيقظ قبل جسد الطالب عقله، وفي مساءاتها يتلو قبل لسان العابد قلبه، وما بين هذا وذاك يشتعل الجسد بلسع ظهيرة حارق، تزيده شدة على شدته دوامة غبار في سمائها، لا فكاك من ذراته المتراكمة على بعضها إلاّ أن تكون في العين قذى، وفي الصدر غصة وحشرجة وإن حاول أن يفرّ المرء منها الى حيث لا مفرّ ولا مهرب، وأن ينجو منها حيث لا ملجأ ولا منجى، ومع ذلك كله يعشق الوافد من أرض الله المعشبة الجميلة الوارفة الظلال بسكرة القاحلة المغبّرة حتى ليتغزل بها ويهيم، ويتباهى الدارس فيها بانتمائه اليها من أي أرض جاءه حتى لينزع عنه نسبه بانتسابه اليها وهو يزهو ويفتخر.

في أسحار عروس الزيبان بسكرة يتحرق الواله كي لا تفارق روحه طيلة حياته روحها، ويستميت الواله كي لا يباين جسمه بعد موته أرضها.

في مدينة بسكرة يختضب القلب بدفء القرب وطيب الوصال، وهو يستلهم من ضريح الفاتح عقبة بن نافع الفهري ، و خالد بن سنان العبسي والعلامة عبد الرحمن الأخضري ....غدوة وعشيا ذاهبا وآيباً وغادياً ورائحاً نورَ وعلم وحكمة .

فكانت للمدينة عند ذاك عمق تاريخي متجذّر موصول بماضٍ من عصر الفتح الاسلامي ، ونصاعة مستوحاة من نور الوحي المبين وإشراقة البيان الكريم وضاءة، وبطولة موروثة من فروسية ساحات الجهاد وقراع الحراب واصطكاك الأسنة محركة فاعلة.

مدينة ، احتضنت لغة القرآن وعلومها، والمنظومة المعرفية وآدابها، وجزالة وبلاغتها وفصاحتها، وأصالة أبجديتها وتراكيبها، وطبقات جرسها ونغمها، فصانتها من حملات التتريك والتذويب، وعمود الشعر العربي وتفعيلاته فحصَّنته من موجات التجريب والتغريب، وعلوم الشريعة الإسلامية وأحكامها فحفظتها من طروحات التجديف والتزييف، وأصول العقيدة وفروعها فنزهتها عن محاولات التشويه والتحريف.

مدينة خرّجت حوزتها العلمية المعاصرة . ناهيك عن تاريخها العلمي العريق . الجمع الغفير من العلماء الأعلام فغدت قلعة للمرجعية الدينية الأصيلة، وحصناً من حصون الشريعة السمحاء، ومعلماً جهادياً ينير الدرب للسالكين، وحاضرة من أهم الحواضر ،

مدينة تحملت جرّاء حفظ رسالة الرحمان وصيانة لغة القرآن ما تحمّلت، معانية من أجله وهي محتسبة راضية ماعانت، من مآس ومحن شاخ على مجالدتها الشاب، وشؤون وشجون شبَّ على ضراوتها الرضيع، وآلام ومصائب استنزفت من الدموع والدماء ما لا يصبر على مثيله إلاّ الثلَّة المؤمنة المختارة المجاهدة.

مدينة تتردد في ذاكرتها وزياراتها الأئمة والمصلحين والعباد والزاهدين والقادة والمجاهدين والحكماء والعارفين والشعراء والمبدعين وغيرهم ممن يصعب تصنيفهم أو إحصاؤهم في هذا الموجز.

فأنّى لي أن استنطق مدينة بهذا الغنى المعرفي كله،أو أن أستلهم روحها وأشحذ ذاكرتها كي تبوح لي بمكنوناتها وتكشف لي المخبوء من ماضيها وحاضرها وأنا على عجالة من أمري،واختصار في كتابتي كاختصاري المقصود هذا، ذلك أني لم أهدف بل لم أطمع بأكثر من أن أعرِّف القاريء معرفة أولى عروس الزيبان بسكرة ماضيا وحاضرا في مبحثين اثنين، أتناول في المبحث الأول منهما الموسوم بـ " بسكرة اسما وتاريخا موجزا وحضارة "

ثم أعرج لماما في المبحث الثاني منهما الموسوم بـ (بسكرة في كتابات الرحالة والدارسين الغربيين).

و قد حاولت في هذا الكتاب أن أقدم نماذج من كتابات الرّحالة والدارسين الغربيين الذين زاروا بسكرة ، فواصفوا معالمها الحضارية و آثارها العمرانية ، و تناولوا عادتها و تراثها ....

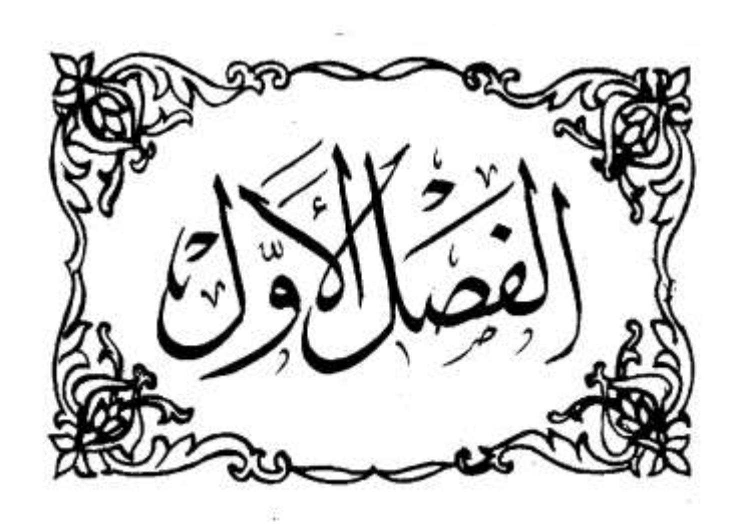
دون أن أغفل عن تقديم ترجمة موجزة لحياة و مسيرة وأثار هؤلاء الكتاب لأضع نصوصهم في سياقها التاريخي الذي كتبت فيه . مدعما عملي ببعض الصور......

حتى إذا وقفت على ذلك كله وقفة سريعة ختمت الكتاب بخاتمته، فهوامشه، فمصادره ومراجعه، سائلا الله عزّ وجلّ أن

يتقبل عملي بقبوله الحسن الجميل،وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم "يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم".

المؤلف عبد القادر بن محمد بومعزة

بسكرة يوم
الثلاثاء 24 ربيع الأول 1437هـ الموافق لـ 05 جانفي 2016م



لمحة تاريخية عن زيبان بسكرة

تمهيد:

يتميز إقليم الزيبان بموقعه الجغرافية الاستراتيجي إذ يعتبر بوابة الصحراء فضلا على احتوائه على موارد وثروات طبيعية هامة،حيث استقطبت عبر الأزمنة العديد من القبائل بإختلاف توجهاتهم خلقت تمازجا حضاريا بينهم أثرى السجل التاريخي للمنطقة.

وقد تعرضت المنطقة للعديد من الغزاة عبر العصور لأهمية موقعها كغيرها من ربوع الوطن آخرها الاحتلال الفرنسي الاستعماري والذي قوبل بالعديد من المقاومات الشعبية المسلحة منذ دخوله المنطقة إلى أن جاءت ثورة نوفمبر 54، هذا إضافة إلى الحركات الإصلاحية والفكرية التي قام بها رجال الفكر والإصلاح، هذا بسبب ما آل إليه حال سكان المنطقة من اضطهاد وفقر وجهل وسيطرة الإدارة الفرنسية على كامل الحياة منها السياسية والثقافية.

المبحث الأول: التعريف بإقليم الزيبان

I. مدلول كلمة الزاب:

_ لغة : يقال زاب الشيء إذا جرى وسال، والمذكور في دائرة المعارف أن جمعها زوابي أو زيبان.[1]

_ اصطلاحا: وقد جاء في الموسوعة العربية الميسرة الزاب نوعان نهر الدجلة يتصلان من الضفة اليسرى،فالزاب الأعلى أو الأكبر له شأن كبير في التاريخ الحرب بين العرب والبيزنطيين، والزاب الأسفل أو الأصغر.[2]

وفي ج1 ص 80 من القاموس: الزاب بلد بالأندلس أو كورة. ثم قال: ونهر بالموصل ونهر بأربل بين سوراء وواسط ونهر أخر بقربة وعلى كل منهما كورة وهما الزابان والأصل الزابيان وتجمع بما حوليهما من الأنهار الزوابي.[3] ويرى ليون الإفريقي أن الزاب إقليم لخمسة مدن هي :بسكرة،البرج، نفطة، تلكة، دوسن. حيث يقع هذا الإقليم في وسط مغارات نوميديا، تبتدئ غربا من تخوم المسيلة ويحده شمالا

---

(1)دائرة المعارف الاسلامية ج10 ص 318ـ 325

(2) الموسوعة العربية الميسرة ص 615

(3) قاموس المحيط ج1 ص 80

مملكة بجاية وشرق بلاد جريد، أما جنوبا فيحده القفار الصحراوية الرملية التي تحاذي طريق تقرت نحو ورقلة.[1]

عرفت نوميديا في عهد العرب بالزاب، اذ قيل في مسيلة أنها من غرر مدن الزاب مما جعل ابن هاني الأندلسي يشيد باسم الزاب في مدائحه لجعفر بن علي أمير المسيلة يقول:

خليلي أين الزاب مني وجعفر

وجنة خلد بنت عنها وكوثر

وأيها القصر المنيف قبابه

على الزاب لا يسدد إليك طريق

يأخذ الزاب اسمه من مدينة زابي (zabi) الرومانية التي كانت تقع في منطقة الحضنة، وقد عرف على الرومان أنهم لم يحتلوا هاته المنطقة واكتفوا بإنشاء معاقل حولها في ناحية بسكرة وعند المنفذ الجنوبي لأودية الأوراس، وكان اسم الزاب في القديم أوسع من الوقت الحاضر حيث كـان يشمل الحضنة ومـدنها الـواقعة عند السفوح الجنوبية للأطلس وهي مقرة، وطبنة، ويطلق اسم الزاب في الوقت الحالي على امتداد غير فسيح عند سفوح الجبال الفاصلة بين سهـول

---

(1) الحسن بن محمد الوزان (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ج2، دار الغرب الإسلامي: بيروت،1983، ص 38

الحضنة والصحراء، قاعدة الزاب هي بسكرة.

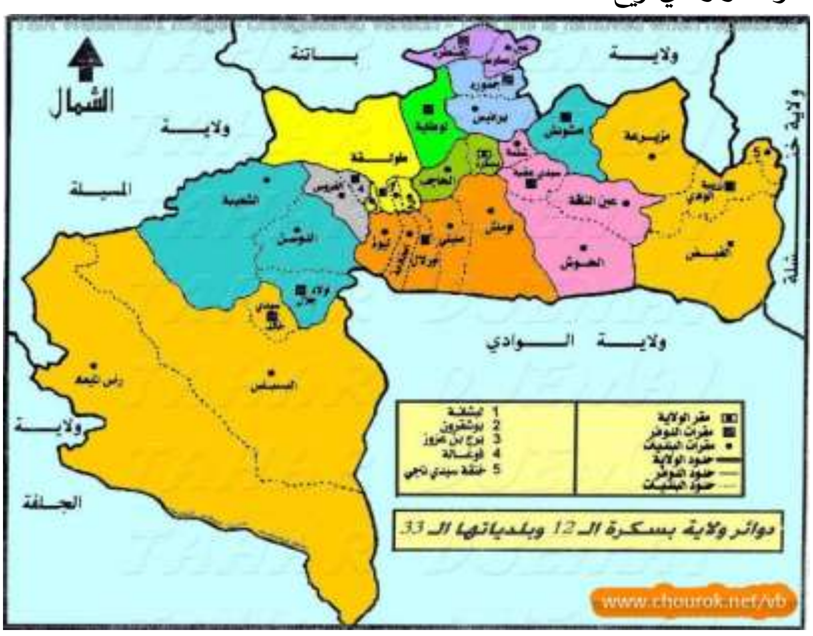
والزاب عبارة عن ثلاث مناطق متميزة و لكنها متصلة : الزاب الظهراوي وهي المنطقة التي تقع فيها طولقة و ليشانة و بوشقرون وفوغالة ، وكلها تعتمد على النخيل و تنتج أجود أنواع التمور ، وتروي أراضيها آبار ارتوازية ، ومنطقة الزاب الغربي ، ومن أهم قراها : ليوة والصحيرة والمخادمة و بنطيوس و أوماش، وهي أيضا تعتمد على زراعة النخيل وتسقى بمياه الآبار الأرتوازية، ومنطقة الزاب الشرقي ، و أهم قراه سيدي عقبة ، حيث يوجد مسجد فاتح المغرب العظيم وقبره ، والدروع ، و سيدي خليل ، وهذه المنطقة تروى بمياه الأنهار التي تنحدر من جبال الأوراس . [1]

تلك هي القرى والمدن المهمة في الزاب في الوقت الحاضر، ولكن عمران هذه المنطقة كان أوسع بكثير في العصر القديم حيث أن ابن خلدون يذكر مئة قرية و كل منهما تحمل اسم الزاب، فقال: زاب طولقة، زاب بسكرة ...إلخ، كما ذكر الحسن بن محمد الوزان المشهور باسم (ليون الإفريقي) خمسة و عشرون مدينة بالإضافة إلى عدد كبير من القرى ...

---

(1) إسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى و شواطئها ، م.و.ك الجزائر 1983 ص 142

تعتبر بسكرة قاعدة الزيبان إذ تتميز بموقعها الإستراتيجي الذي يعد حلقة وصل بين الجنوب الشرقي الصحراوي، و الشمال الشرقي التلي للقطر الجزائري و تمتد هذه المنطقة بمحاذاة الحدود التونسية و جبال الأوراس في الشمال كحاجز طبيعي يفصلها التل، أما القسم الجنوبي فتغطيه الكثبان الرملية المتقطعة بشط ملغيغ وواحات واد سوف و وادي ريغ [1]



خريطة منطقة زيبان بسكرة

---

(1)إبراهيم مياسي، من قضايا التاريخ المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر1999، ص 40

II. الإطار الجغرافي و البشري:

-المرتفعات: يعد إقليم الزاب جزء هاما من إقليم الصحراوي، الذي يضم منخفض الحضنة، الواقع بين منطقتي الهضاب الوسطى والعليا من جهة، و سلسلة جبال الأطلس من جهة ثانية، إذ يربط بينهما ابتداء من سهول " ناماللت " الواقعة على سفوح جبال القصور التي تمتد إلى غاية جبال الزاب و الذي يطلق عليه إقليم الزاب، المحصور بين العرق الشرقي الكبير جنوبا و سفوح جبال الأوراس شمالا، ومن الغرب جبال الزاب، جبال أولاد نايل و جبال العمور بينما من الشرق جبال نمامشة حتى الحدود التونسية

2-المناخ و الغطاء النباتي:

يتميز مناخ المنطقة بالطابع القاري الجاف فهو قليل الأمطار و جاف صيفا و بارد شتاء، و ما يزيد في قساوة هذا الإقليم تعرضه في فصل الصيف إلى هبوب رياح ساخنة القادمة من شمال الشرقي للصحراء الكبرى، و الحاملة معها الزوابع المثقلة بالرمال و الغبار. و في فصل الشتاء يتعرض الإقليم إلى الرياح جافة باردة تجارية، تغزو شمال الشرق الصحراء في كل موسم ابتداء من شهر أكتوبر إلى غاية شهر ماي.

أما تساقط الأمطار بالإقليم. فتؤثر فيه العديد من العوامل منها: الحرارة، الرياح الجافة و موقعه وراء الأطلس الصحراوي، الذي يعتبر

حاجز طبيعي يحول دون مرور السحب المشبعة بالأمطار نحو الداخل إضافة إلى ارتفاعه 128 متر على سطح البحر، فكل هذه العوامل أثرت في منسوب الأمطار إذ يقدر في مدينة بسكرة على سبيل المثال ب: 175 مم سنويا فقط، فهذا الواقع أثر على الغطاء النباتي في منطقة الزيبان التي تسقى بفيضان وادي جدي الخاضع لتأثيرات الصحراوية و كغيره من الوديان، إذ لا تتلقى إلا القليل من الأمطار الغير منتظمة في كثير من الأوقات، فالماء غير كافي في الأوقات العادية في زراعة الحبوب، لكن في الكثير من الجهات كانت متأتية بواسطة السدود و الآبار، فإن الماء غزير و زائد على الكفاية، إذ تتمتع المنطقة بأملاك غنية بالواحات، و يقدر مجموعها 23945600 نخلة متجمعة. في منابت النخيل حيث تنمو أيضا الخضروات وبعض الأشجار المثمرة المحاطة بمساحة قليلة الاتساع مزروعة بالحبوب بفضل الري.

3-الإطار البشري:

و قد كان لقساوة الطبيعة في هذه البيئة الصحراوية و صعوبة الحياة فيها أثر العميق على السكان، فاصطبغت حياتهم بلون الشدة. إذ يتطلب من الفرد صلابة و قدرة تمكنه من تحمل قساوة المناخ من جهة التكيف مع الظروف المعيشية الصعبة من جهة أخرى، فقد حددت الظروف البيئة مواقع الإقامة والاستقرار و التي لا تخرج في مجملها على واحات النخيل التي تعتبر مصدر الأساسي لرزق معظم السكان.

و من الشعوب التي احتلت المنطقة أو البلاد: الفينيقيون و اليونان والرومان واليهود و الوندال و البيزنطيين و العرب و الفرس و الزنوج والنرمان و غيرهم من الأوربيين. و البربر قسمان:

- **البـرانس:** سكان الشمال و هو أكثر استقرار و حضارة و مقاومة منهم كتامة وصنهاجة و زواوة.

- **البتر:** سكان الجنوب منهم زناتة، و حياة هؤلاء أشد شبها بحياة العرب الأعراب و الأوراس يسكن شماله البرانس و يسكن جنوبه البتر غالبا فالحروب و الثورات و الاحتلال و الفتوح الإسلامية غيرت مواقع السكان.

سكن الأوراس قبائل بني هلال، قبيلة الأثيج شرقي بسكرة ورياح غربهما و لهاتين القبيلتين أثر في تاريخ بسكرة و الزيبان، بل و تاريخ تونس وعمالة قسنطينة و حتى تلمسان و فاس و مراكش، بينما كانت موطن الحدلجات أوراس مما يلي زاب تهودا، و أولاد ثابت اقطعهم الحفصيون جانب الأوراس الشرقي و الزيبان الشرقية و بنو محمد والمروانة تلقاء أولاد ثابت ظواعن في القفار، و كرفه كانوا محالفين لصنهاجة ثم الحفصيين و لما ضعف نفوذ الحفصيين بالزاب اتجهوا نحو الجبل الأوراس.

و إبان فتح الإسلامي كانت منطقة الزيبان ثالث مركز للقيادة الإسلامية العليا. و لا تزال أحد قراها تحمل اسم الفاتح العظيم عقبة بن نافع، و هي القرية التي تسمى سيدي عقبة إلى يومنا هذا.

و بعد ذلك العهد عاشت المنطقة و البلاد أيام الرستميين والزيريين والحماديين و المرابطين و المرينين و العبد الواديين والزيانيين و الأتراك ثم العهدة الاستعمارية الفرنسية.



بسكرة عاصمة الزاب

المـــوقع

تقـع ولايـــة بسكرة في الجهة الجنوبية الشرقية من الجزائر تبعد عن عاصمة البلاد بحوالي 400 كلم حيث يحدها من الشمال ولاية باتنة التي تبعد حوالي 120 كلم ومن الشمــال الغربى ولاية المسيلة بـ 310 كلم ومن الشمال الشـرقي ولايـــة خنشلة بـ 200 كلم ومن الغرب ولاية الجلـفة بـ 277 كلم والجنوب الـوادي .بـ220 كلم

تتربع ولاية بسكرة على مساحة إجمالية تقدر بنحو 20ر21671 كلم مربع. وتضم 33 بلدية موزعة على 12 دائرة إدارية يقطنها 633234 ألـف نسمة وبكثافة سكانية بمعدل 28 ساكن لكل كلم. وهي بذالك من أكبر الولايات الجنوبية

تتكون تضاريس الولاية من عناصر متباينة حيث تتمركز الجبال في شمال وتحتل مساحة هامة والسهول تمتد على محور شرق/غرب وتمثل سهوب لوطاية والدوسن وليوة وطولقة وسيدى عقبة وزريبة الوادي وتتميز تلك المناطق بتربة عميقة وخصبة. أما الهضاب فتقع في الناحية الغربية من إقليم الولاية وتشمل دائرتي أولاد جلال وسيدى خالد فيما تغطى المنخفضات المناطق الجنوبية والشرقية من تراب

المدينة وأهمها شط ملغيغ. في الصيف تكون درجة الحرارة مرتفعة نهار يتلائم سكانه مع مناخه الحر. وفي الشتاء يكون الجو معتدل برد.

تعتبر منطقة الزيبان منطقة خصبة ومهدا للحضارة والعلوم والثقافة ومركزا للإشعاع الديني وقلعة خالدة في تاريخ ثورة نوفمبر التحريرية المجيدة التي حررت الوطن من عبودية المستعمر.

تلقب الولاية بعروس الزيبان وبوابة الصحراء الكبرى.

منذ الأزل كانت بسكرة همزة وصل بين الشمال والجنوب ومعبراً سياحيا جد هام, إذ باتت تزخر بموقع إستراتيجي تألقت فيه ثرواتها ومؤهلاتها. بسكرة تلك نجمة الساطعة في أفق الصحراء الشاسعة عروس تحلت بجواهر الزيبان, بوابة الأجيال والأفكار, مسلك لأهم مناطق الجنوب, من هنا نشأ المفكرون ومن هنا دأت العبقريات وتجلت في طبيعتها قدرة الخالق الموقع الجغرافي للمنطقة (بوابة الصحراء الجزائرية أو منطقة الزيبان).

تعتبر من أهم الواحات الكبرى في الجزائر، تمتد على مساحة تصل إلى 05 كلم2، تحوي مناطق فلاحية تقدر تقريبا بـ 1300 هكتار ،ثروة غابية بها أكثر من 4.500.000 نخلة والعديد من الأشجار المثمرة. إنتاجها الوفير للتمور ذات الجودة العالية وبجميع أنواعها، منها" دقلة نور "المشهورة عالميا.

المنابع المعدنية الحارة الواقعة في أنحاء مختلفة من تراب الولاية،

والمعروفة وطنيا، منها المستغلة (حمام الصالحين-حمام سيدي الحاج-حمام الشقة-حمام الحاجب...)، ومنها الغير مستغلة.
المركز الديني المشهور إسلاميا والمهتم بتعاليم القرآن الكريم والشريعة الإسلامية، المقام ببلدية سيدي عقبة، هذه البلدية المسماة على الصحابي عقبة بن نافع والموجود ضريحه بهذه الأخيرة.
الطرق الوطنية المختلفة المرتبطة والمحيطة بالولاية، خط السكك الحديدية الرابط بين الشمال والجنوب، المطار الدولي والجامعة.

أجمل الأماكن وأروعها في بسكرة منطقة مشونش والقنطرة وهي من أجمل الأماكن معترف بها في السياحة العالمية هناك الجبال العالية والنخيل هناك باسقات لها طلع نضيد وخاصة الجسر الروماني ما زال حتى اليوم وكذلك من المناطق الجميلة منطقة طولقة وبلدية الدوسن التي يوجد فيها أجود التمور تلك التمور الذهبية لها طعم ومذاق لا يوجد في أي مكان إلا في هتين المنطقتين وطولقة تعتبر مدينة ثانية للبسكرة وبها الزاوية العثمانية الغنية بالمخطوطات وكذلك قرية فوغالة المتميزة بواحات النخيل وهي جنة من جنات الأرض وأكبر بلدية في ولاية بسكرة وأشهرها هي مدينة سيدي خالد التي هي قرب مدينة أولاد جلال وهي مدينة سياحية وتاريخية اثرية تحتوي على آثار قديمة زوروها وسترون الجمال الباهر مع طيبة اهلها وكرمهم الواسع وبها مسجد الشيخ الصالح خالد بن سنان وهو من المساجد القديمة في المنطقة.

تـــاريخ المدينة

لمدينة بسكرة تاريخ عريق وموقع متميز, فهي تضرب جذورها في أعماق التاريخ, فقد تعاقبت على أرضها الحضارات والثورات من العهد الروماني إلى الفتوحات الإسلامية إلى الغزو الفرنسي والاستقلال. ثم إن موقعها الإستراتيجي كبوابة الصحراء وهمزة وصل بين الشمال والجنوب ومن الشرق والغرب وبمناخ وتضاريس مثمرة أيضا, كل هذه المعطيات أعطتها أهمية عبر كافة المراحل والعصور التاريخية. وكما كانت الحواضر قديما على ضفاف الأودية والأنهار وعلى منابع المياه وفي الأماكن الحصينة والمنيعة, فان الحركة العمرانية لمدينة بسكرة انطلقت من مصادر المياه فكان منبع حمام الصالحين ومنابع رأس الماء البدايات الأولى ببسكرة فشكلت منابع الحمام ما عرف بـ:" بيسينامADPISSINAME " حيث عثر بالقرب من هذا الحمام على بقايا أثرية. أما الثانية فكانت النواة الأولى لما عرف في العهد الروماني " فيسيرة (VESCERA)" ويبدو أن طبيعة ماء منبع الحمام حال دون توسع "بيسينلم" ليترك المجال إلى" فسيرة " لتتحول إلى بسكرة الحالية مع الفتوحات الإسلامية ولتتوسع تحت ظروف تاريخية ومعطيات جغرافية اقتصادية وحضارية. بسكرة

وجذورها التاريخية إن التسمية الأصلية لعروس الزيبان التي تعرف الآن ببسكرة ما تزال محل خلاف المؤرخين سواء كانوا عرب أو أجانب فمنهم من يؤكد أن اسمها مشتق من كلمة " فسيرة

(VESCERA) " الروماني الأصل والذي يعني الموقع التجاري نظرا لتقاطع طرق العبور بين الشرق والغرب, الشمال والجنوب, ومنهم من يرى أن التسمية الأولى هي (AD PISCINAME) أو "بيسينام " وهي كذلك رومانية وتعني المنبع المعدني نسبة إلى حمام الصالحين إلا أن "جيزل " يبدى أقصى التحفظ فيما إذا كانت "فسيرة " قد أخذت تسميتها من بيسينام. ويرى زهير الزاهري أن كلمة بسكرة ترمز إلى حلاوة تمرها (دقلة نور) تلك الثمرة التي تزخر بها المنطقة. إلا أن الجميع يشهد بالتاريخ المجيد لهذه المدينة التي ضربت جذورها في القدم. يرتبط تاريخ المدينة مع تاريخ مناطق الجنوب والجنوب الكبير بحيث أرجعت دراسة تاريخ المنطقة إلى حوالي 7000 سنة قبل الميلاد وقسمت تطورها إلى أربعة أقسام أساسية بحيث ميزت كل مرحلة بحيوان كان يعيش في ذلك الوقت وعلى تلك الرسوم التي وجدت على الصخور والحجارة ،فالمرحلة الاولى من 7.000 إلى 5.000 قبل الميلاد سميت بمرحلة البوبال (BUBALE)" وهو حيوان يشبه إلى حد كبير الثور (BUFFLE ANTIQUE) أما المرحلة الثانية تمتد من 3.000 (ق.م) وسميت بمرحلة" البقر (BOVIDIENNE)" المرحلة الثالثة.

ابتداء من1.200 ق.م سميت بمرحلة " الحصان " للإشارة لوحظ على الرسوم الموجودة أن الأسلحة المستعملة من طرف قبائل هذه المرحلة تشبه إلى حد كبير الأسلحة التي يستعملها " الطوارق " حاليا (الخنجر والدرع). المرحلة ما بين القرن الثالث والأول قبل الميلاد

سميت بمرحلة " الجمل " خلال هذه المرحلة يلاحظ أن الحصان يفسح المجال للجمل وهذا ما يجسد تصحر المنطقة وبروز قبائل. وبسكرة واحة ضمن واحات الزيبان، و الزاب يعني بالأمازيغية واحة، أما ابن خلدون فقد عرف الواحة بأنها " وطن كبير يشمل قرى متعددة متجاورة جمعا جمعا أولاها زاب الدوسن ثم زاب مليلي ثم زاب بسكرة زاب تهودة وزاب بادس وبسكرة أهم هذه القرى كلها " وقد خضعت المنطقة للاحتلال الروماني فالوندالي ثم البيزنطي وتركوا آثار ما تزال تشهد على الأهمية الإستراتيجية للمدينة وطابعها العمراني المتميز. ومع الفتوحات الإسلامية وخلال القرن السابع الميلادي (663م) تمكن القائد " عقبة بن نافع " من فتح بسكرة وطرد الحاميات الرومانية من المنطقة فكان هذا الحدث تحولا بارزا في تاريخ المنطقة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعمرانيا. وقد تعاقبت على المدينة بعد الفتح عدة دويلات وخلافات: الزيريون، الهلاليون، الحفصيون، الزيانيون، ثم الخلافة العثمانية من القرن 16 إلى القرن 19. خلال فترة العصور الوسطى تميزت بالطابع الإسلامي في شتى مناحي الحياة وبرز ذلك من خلال ما كتبه المؤرخون والرحالة العرب وما بقي من آثار لا تزال شاهدة على ذلك. وباحتلالها من طرف الفرنسيين عام 1844م ونظرا للطابع الاستيطاني والعنصري للاحتلال الفرنسي وضعها كنقطة انطلاق للتوسع في الجنوب، إنشاء حامية لتكون نواة لمدينة جديدة في المكان المسمى " رأس الماء " باعتباره موقع استراتيجي حساس، لتنمو وتتوسع تلك المدينة مع توسع المدنية

القديمة ويكون هذا الاهتمام منصبا حول تنمية وتطوير المدينة الجديدة حيث يقيم المعمرون

التطور العمراني ببسكرة عبر التاريخ

جاء وصف " الورجلاني " لمدينة بسكرة أنه كانت تحتوي على بيوت جميلة تتوسطها ساحات كبيرة و بها سطوح و مفتوحة من الخلف على بيوت و خاصة, وقد ذكر أيضا مئذنة المسجد الكبير وشبهها بمنارة سمراء في الضخامة.

العصر التركي

لم يدخل الأتراك بسهولة إلى المدينة بل ضربو عليها حصار دام عدة أشهر وخلاله مات الكثير عطشا و لم يسلموا إلا بعد مدة وعندما دخلوا المدينة خرج الناس إلى غاباتهم و حقولهم و مزارعهم وبهذا قسمت المدينة إلى قسمين: ***المدينة القديمة** المهجورة: قداشة, باب الضرب و البرج التركي. * **المدينة الجديدة**: المسيد, راس القرية و سيدي بركات.

العصر الاستعماري

دخل الاستعمار الفرنسي المدينة عام 1844 و استقر أول الأمر بالقلعة التركية ثم أقاموا مخططهم الشطرنجي خارج المدينة العربية لعزلهم ولمراقبتهم و لمراقبة سلامة المعمرين, و بهذا كان نسيجين.النسيج العربي العتيق و النسيج الفرنسي الحديث وقتها .



بسكرة

في كتابات الرحالة والدارسين الغربيين

شهدت منطقة الزيبان (بسكرة) , التي كانت تموج بالأحداث والتطورات السياسية المختلفة خلال القرون الثلاث الأخيرة , ان توافد عليها عدد من الرحالة والمستشرقين من مختلف المشارب والاتجاهات.....

وقد دخل هؤلاء المغامرين والرحالة إلى المنطقة بصفات وأهداف متعددة : فمنهم الباحث وعالم الآثار, ومنهم السائح والتاجر, ومنهم الطبيب والمبشر, منهم المبعوث السياسي والدبلوماسي, ومنهم الجاسوس وكلٌ على حسب هدفه ... وقد قام هؤلاء الرحالة بدراسة أوضاع البلاد والتعرف على أحوالها وكتابة تقارير عنها . ومثل ما اختلفت أهدافهم فقد اختلفت كتاباتهم عنها : فمنهم من كان منصفاً ومحايد وامتازت كتاباته بالموضوعية , ومنهم من سيطرت على كتاباته روح التعصب الديني او العنصري القومي , والأحكام المسبقة , وعدم الموضوعية في إصدار الأحكام وتعميمها

.ومن خلال كتاباتهم وتقاريرهم عن رحلاتهم , ساهم هؤلاء الرحالين في كتابة تأريخ فترة من فترات تاريخنا المحلي لم تحظ بالاهتمام الكافي من مؤرخينا المحليين , وقد اكتسبت كتاباتهم عن منطقة الزيبان ـ بسكرة ـ أهمية بالغة لما تحويه من معلومات وافيه وممنهجه بصورة علمية سليمة.

ولذا لا بد لدارسي التاريخ الحديث لمدينة بسكرة وبالخصوص منطقة الزيبان , من الرجوع إلى ما كتبه الرحالة والمستشرقين, لما تحويه من معلومات وتقييمات مهمة عن منطقتنا التاريخية , بغض

النظر عن الأهداف والمقاصد والتوجهات وآرائهم السلبية وافتراءات البعض منهم وأحكامهم الغير موضوعية .. والذي لا ينبغي لنا , ومهما تكن الشوائب والأخطاء في هذه الكتابات, أن نتعامل معها بالعاطفة وعدم الموضوعية , أو تكون حائلا بيننا وبين معرفة ما حوته من مادة علمية قيمة , فبدونها ستبقى صفحات من تاريخنا وتاريخ أوضاعنا مطوية.

والذي يعنينا في هذه الكتابات هي الجوانب الايجابية والتي يمكن تناولها على أساس علمي بحت , للإفادة منها وبالأخص ما رصدته من أحوال سياسية واجتماعية ونواح حضارية وآثارية وجغرافية , لا غنى عنها لأي باحث في تاريخ منطقة الزيبان . وهي من الاعتبارات التي دعت إلى طرح بعض من هذه الكتب وإتاحتها للباحثين والمهتمين بالدراسات التاريخية والجغرافية والاجتماعية .. وسوف تطرح هذه الكتب على مجموعات , وكل مجموعة تضم عدد من الكتب . وهذه هي المجموعة الأولى منها , والبقية ستطرح في أعمال أخرى في الأيام القادمة بمشيئة الله .



في بلاد النخيل بسكرة*

فيلكس هاتفورد

الكتاب في 148صفحة ،من الحجم الصغير ، طبع بباريس سنة 1879م ، فيصف الكاتب في هذا الكتاب كل ما عن له وكثيرا ما يتوقف عند جزئيات صغيرة لكنه ذات دلالة انسانية أو طبيعية ، تتخللها من عناصر الحياة و التميز تاريخيا و اشهاريا من ذكر العادات و التقاليد في أعراس و المأتم و نقل الكاتب تفاصيل ما يحدث من أمور هي مجموع مظاهر التعاقد الاجتماعي الخاص،كان الكاتب ينقلها بعفوية و دقة ، كان في الأغلب يقدم صورة التي يظهر فيها العربي بصورته المحافظة .

يقول **فيلكس هاتفور** عند وصوله إلى بسكرة في ليلته الاولى : ((إنها فرحة كبيرة لكل مسافر بعد سفر شاق ومتعب أن يكتشف وكأنها عملية سحرية ، بروز هذه الواحة التي تسبح في بحر من العنبر

Au pays des palmes Biskra __ Félix Hauttfort __ Paris 1897 *

وصفاء سمائها و شمخة نخيلها وجمال نسائها (النايليات) اللواتي يرقصن برشاقة ما يترك جمال الحرير الذي يرتدينه أكثر جمالا وصوت الخلخال يعطي رنة خاصة ، هذا ما يترك العربي يسبح في نهر من الخيال بين البساتين التي تلد الأحلام ، هنا حنين الناي كأنه يتألم بين أغاني العصافير التي تتأمل غروب الشمس))

كما تحدث الكاتب عن النشأة الحضارية للمدينة مؤكدا أن فرنسا بنت بالمنطقة قرب وادي زرزور برجا سمي شعبيا برج الترك ثم اتسعت من نقطته التي كانت محيطة بالأشجار التي تعلوها حتى أنها كانت تحجبها عن الأنظار يقول الكاتب :((غير بعيد من هذا المكان شيدت كنيسة و على رأس قبتها عين كبيرة تدل على الوقت إنها الساعة الكبيرة المرتبطة بالجرس ، من هنا تنطلق المدينة و هي عبارة عن رسومات هندسية تشبه لعبة الشطرنج شوارع مستقيمة ذات سطوح بيضاء إنه الحي الأوربي ، محلات تجارية متواضعة ثم سكنات جميلة و فخمة ذات طابع معماري جميل يقرب في صورته النمط الأندلسي و هاهو مقر البلدية أين تدرس القضايا المدنية والتشريعية ....))ثم ينتقل الكاتب في وصف السوق : ((تاجر صغير تحت ظل الأقواس إنه مقهى و بجانبه مطعم يقدم أطباق شعبية للفقراء أو الضعفاء .في مكان أخر إنها رائحة التوابل التي تختلط من الجلود أو الطلاء ، إنهم بني ميزاب من أهالي بن بكوش عبد الله أو بكوش محمد الذين جاؤوا لصنع ثروتهم ، بالقرب من المكان نجد اليهود الذين يتاجرون بالذهب أو الفضة ،أما بني ميزاب فهم يحتكرون القماش

والقفطان و الحايك ، وليس بالبعيد عن هذا المكان نجد حلاقا أو من يقلع الأسنان ....»

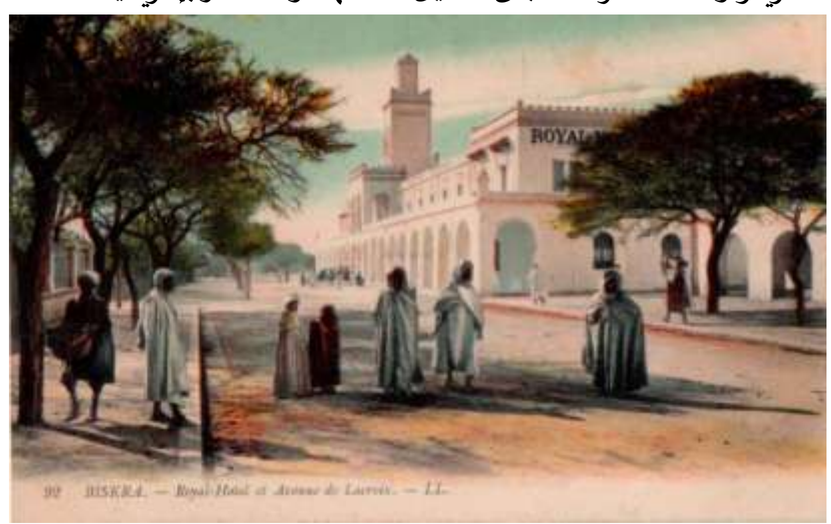
ينتقل الكاتب بعد ذلك بوصف منطقة لوطاية و مناظرها الخلابة مع التركيز على ما تحتوى عليه المنطقة من أثار و منابع و كنوز خفية ، يصف المنطقة الشمالية بالموقع الخلاب خاصة المجهودات التي قام بها الجيش الفرنسي في بناء الجسور بمنطقة القنطرة ، في الجنوب يقدم المؤلف صورة جميلة على مدخل مدينة بسكرة الجميلة باخضرار بساتينها و علو مأذن مساجدها و هنا يصف دار الضياف " دار الثقافة حاليا " ثم نزل رويال كما يصف وادي سيدي زرزور وتحولاته مرتين في السنة ثم يقف الكاتب عند جدران حديقة لندون و يقدم وصفا معمقا على كل أنواع الأشجار الموجودة هناك . بعد ذلك قام الكاتب بجولة سياحية و سط أحياء بسكرة القديمة وتجول بين أزقتها و قدم لنا وصفا دقيقا عنها .(رأس القرية ـ باب الضرب ـ لمسيد ـ كرة و مجنيش ـ فلياش ـ سيدي بركات ـ قداشة) .

تكلم الكاتب في فصل سماه السهل : تحدث فيه عن زيارته لبساتين المدينة ووصف لنا طريقة السقي القديمة التي توزع حسب حجم البستان ، ثم عدد النخيل و القاعدة لتقسيم المياه ما يسمى (اللكزة) يقول الكاتب : هذه السهول و أنت تتجول بها تصلك إلى منطقة السعدة بطريق تقرت و ورقلة على يمينك تجد باب الضرب ثم المسيد و رأس القرية هنا يقابلك مسجد سيدي جودي و هناك

سيدي عبد المالك ...وأنت في طريقك إلى وسط تقابلك بيت الله (مستشفى الحكيم سعدان)

تكلم أيضا الكاتب عن سباق الخيل (الفانتازيا) وما كان يسمى بعيد الربيع ، تتم فيه استعراضات واسعة للفرق الفلكورية المحلية والجهوية من مناطق عديدة مثل الجلفة و الأغواط و بريكة و تبسة

و في الفصل الاخير تحدث الكاتب عن الحياة الأوربية فيقول : ((أن العرب اختاروا هذا المكان و أطلقوا عليه اسم جوهرة الواحات نظرا للجو المريح و حلاوة الطبيعة ، إنه مكان للاستجمام و الاستشفاء خاصة أولئك المصابين بمرض الربو أو الامراض الجلدية ، بسكرة مدينة المياه ، مدينة ا استجمام و ليس بالغريب أن بنى فيها كبير الكازينو وكذلك شركة سباق الخيل كما بها أول مطار بإفريقيا ....))



نــزل رويـــال

بسكرة الزيبان*

ج.ماركايو داميريكو و جورج هرتز

كتيب صغير من تأليف ج.ماركايو داميريكو وجورج هرتز و هما مؤلفان فرنسيان ، طبع بمطابع السيد أونري باكونيه بالجزائر العاصمة سنة 1954 ،عدد صفحاته 28صفحة مزين بلوحات فنية بريشة الفنان كريستيان دوكاستين (. Chritian de Gastyne)

أما ناشر الكتيب فهي البلدية المختلطة و نقابة المبادرات ببسكرة

يقع الكتيب في أربع عشرة ورقة من القطع الصغير

تبدأ جزئيات الرحلة من القنطرة ومثل كل الرحالة الذين مروا بالقنطرة تشدهم صخورها و جبالها الارجوانية كان المنظر رائعا حسب وصفهما : ((من هناك على ثغر مؤثر بالقنطرة ، بعد أواخر منحدرات التـــل ، حيث النتوءات الصخرية تغـرق الأرض كمنـــاشير

---

*Biskra le ziban Presentation de G. Marcailhou d'Aymeric et Georges Hirtz. Imprimeur. Henry Baconnier, Alger,le 15 Novembre 1954.

* ترجم هذا الكتيب إلى العربية : لزهر بن عيسى وعبد الحليم صيد أنظر: كتاب أبحاث في تاريخ زيبان بسكرة لعبد الحليم صيد

ضخمة و قلاع فضية عجيبة إنه وحي الصحراء المفاجىء)) [1]

بدأ الكاتبان رحلتهما الاستطلاعية من مدينة بسكرة ومرورا بضريح سيدي زرزور فحديقة لندون، فيقولان عنها : ((في هذه الحديقة المعدة للقصص الشاعرية ، ومن خلال ليلة مقمرة نستمتع بتصور خيـــال كبير آت من بيـــن أشجار السرو و أشجـــار الـــزيتون الفضية ، أندرية جيد حلق بأفكاره الناشئة التي ساهمت في صنع مجده النامي ، و التي جعلت خياله أكثر وسعا ،إنه في بسكرة و خاصة في حديقة لاندون ، حيث وجد جيد غذاء شاعريته ....)) [2] ثم يقوم الكاتبان بجولة سياحية وسط أحياء المدينة القديمة وقدما لنا وصفا دقيقا على أحيائها : مقهى سكساف المغربية ، لمسيد ، برج الترك ، قداشة .. و عند زيارتهما لواحات الزاب الظهراوي يقولان : ((هاهي بوشقرون كلوحة مائية صينية ، مدخلها طريق صغيرة ملتوية و مظلمة ، تضيئها أحيانا فجوات من نور الشمس ، الجريد مع مرور الرياح يظهر و كأنه يمشط السماء على طول حائط من فخار محجر ،الأطفال يتفرقون وهم يضحكون فوق المنازل الطوبية ، و هناك منارة مرفوعة مثل شجرة سرو بيضاء في السماء شاحبة حيث يرتفع صوت المؤذن ،)) [3]

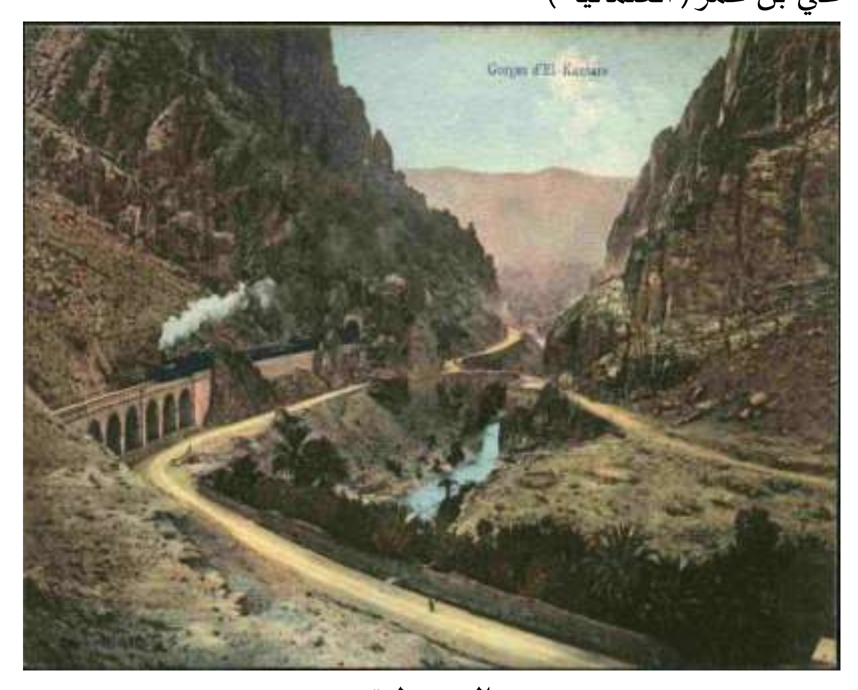
---

(1) بسكرة الزيبان ص 5

(2) نفس المصدر 7

(3) نفس المصدر 9

ووصفا لنا ليشانة و فرفار، فوغالة ، ليوة و البرج ، فأبديا اعجابهما بمدينة طولقة : ((طولقة عاصمة الزيبان تظهر أحيانا و كأنها جزيرة طويلة خضراء في وسط حوض أشقر هنا البساتين أعمق و أغنى والأشجار أكثر قوة و بهجة و أكثر صلابة أيضا ، بين أصابعها الحادة الخضراء موهبة من السماء تبدو كأنها تنزل إلى قلبها لنزع الحلقة الذهبية من فواكهها الناضجة التمرة الطيبة الأحسن عالميا (دقلة نور) السميكة الشقراء ، اللذيذة الذوق جدا ومن نوعية نادرة ....)) ولم ينس الكاتبان التحدث عن القائد بوعزيز بن قانه و زاوية علي بن عمر (العثمانية)



القنـــطرة

كانت زيارة الكاتبان لأشهر واحة في بسكرة ألا وهي سيدي عقبة أهتما غاية الاهتمام بوصف جامعها (جامع سيدي عقبة) وما طرأ عليه من تغير داخلي ، كما التفتا إلى الفلاحة في مختلف فروعها من غرس وحرث و تشجير و سقي و قدما صورة عنها .

لم ينس الكاتبان أيضا زيارة الدروع ـ شتمة ـ فلياش ـ سيدي خليل ـ مشونش ـ بنيان

و يختم الكاتبان هذه الرحالة بهذا الوصف : « بلد فريد الغني ذو إمكانات واسعة بدون انقطاع ....إن العالم و العاشق و الرياضي والصياد و المولع بالفنون و الرسام و النحات و المحب للواحات كل هؤلاء يجدون في بسكرة و الزيبان الموضع الفريدة الأكثر إثارة من بلدتهم المكشوفة .....سحر جديد يتبعهم بإسهاب ، ذكرياتهم وأحلامهم تتوثق من الأن فصاعدا في سحر لازوردي من العظمة ، الإيقاعات ، العطور و التناقضات تكون قد صبت في قلب كل واحد حنينا منعشا إلى بلد يفتن دائما»

(1) المرجع السابق ص 14

بسكرة بوابة الصحراء*

س.ه. لـــيدر

رحلته إلى بسكرة بدأت سنة 1909 حيث ركب القطار من الجزائر العاصمة و كان الطقس جميلا في فصل الخريف ، وفور إقامته في بسكرة وجد المؤلف ليدر من يحسن الإنجليزية فاتخذه دليلا ومترجما و بدأ يستكشف البلدة ومن خلالها يكتشف الانسان فيها ، نظرته ، طبيعته ، مزاجه ، فمثله كسائح لا يغرب عن باله نظرات الناس إليه و أحكامهم عليه لأنهم يعرفون غرض السواح عندما يتفاطرون على مدينتهم ، لذلك فهم مطمئنون إلى أن أي سائح يقصدهم فإنه محتاج إليهم و لا يستطيع الاستغناء عن خدماتهم و مساعدتهم .

وهذا الانطباع أكدهله فتى اسمه (الطيب بن أحمد) الذي أصبح دليلا و مترجما له ولزوجته أثناء إقامتهما في بسكرة ، لقد كان رهن الاشارة دائما و في أي وقت يحتاجان إليه يجدانه أمامهما ودون أن يفرض نفسه عليهما .

The Desert Gate Biskra And Therabouts –S.H.Leeder---London 1910 *

وقد لاحظ هذا الرحالة روح التفتح لدى سكان بسكرة أثناء تجواله في شوارعها و أحيائها و حتى في المقهى حين دخل إليه فقد عرضوا عليه مشاركتهم في لعبة الدومينو و تدخين السجائر ،بل أنه عجب من هؤلاء الذين حيوه بحرارة رغم أنهم راوه مرة واحدة فقط حين نزوله من القطار للمرة الأولى.

و يسوق قصة يؤكد بها حكمه على بساطة هؤلاء الناس و خدمتهم للأجنبي مجانا بدون طمع ، فقد أهداه شخص يدعى (أحمد بن الفار) كتابا بعنوان حديقة الله The Garden of Allah ولم يفارقهم حتى أخر لحظة .

وهنا تتاح للمؤلف ليدر زيارة السوق لرؤية البضائع المختلفة و شاهد أصحاب الحوانيت يجلسون أمامها فوق الأرض ، و تأمل ذلك اللباس العربي الرائع الذي يرتديه الرجال وما أثار دهشته أكثر هم هؤلاء الرجال الماهرون الذين يجلسون وراء ألة الحياكة يضغطون بأقدامهم عليها فتدور في صوت رتيب خفيض بينما يرتفع صوت الخياط بالغناء الشجي .

و أثناء تجواله في المدينة و في سوقها وجد فرقة موسيقية و استمع إلى شخص يعزف على الناس و بصحبته مطرب أعمى يغني و قد تحلق الناس حوله ـ كبارا وصغارا ـ و هم يجلسون على الأرض ومن وقت لآخر يضعون بعض الدريهمات في يده [1]

---

(1) نفس المصدر ص 10

وفي هذا المجتمع التقى الرحالة ليدر برجل اسمه (علي بن مسعود) وهو مثقف متدين في القرآن و في العلوم الإسلامية كما يعرف الكثير من الأدب العــربي و يستطيع أن يجيب عن أسئلة كثــيرة تراود الـذهن فيما يتعلق بالدين مما ساعد هذا الرحالة على فهم كثير من المسائل الخاصة بالإسلام .

و يستطرد في الحديث عن السوق وما يباع فيها من بضائع مختلفة ولكنه لم يشاهد أية امرأة فيه كما رأى أشخاصا يكتبون رسائل بالعربية لمن يطلب منهم ذلك فيملي صاحب الرسالة بالدارجة ليصوغها الكاتب بالعربية الفصحى ، و هؤلاء الناس في بسكرة يبتهجون لسماع قصة يرويها لهم شخص داخل المقهى حيث : ((يجلس الراوي المحترف فوق مكان مرتفع و يأخذ في سرد قصص مثيرة من ألف ليلة و ليلة أو من قصص أبطالهم الوطنيين الذين دافعوا عن بلادهم ، وهو يتلو ذلك بالعربية الفصحى من كتاب قديم ......)) [(1)]
ومما لفت نظر الرحالة ليدر أن الرجل و المرأة هنا يؤديان الصلاة حسب ما أمر به الإسلام و أن المؤمنين يتطيبون في يوم الجمعة
ثم يسوق الرحالة الحديث أن الذي ملك عليه لبه ما شاهده من مناظر ساحرة عندما اتجه إلى بني مرة و رأى الشمس وهي تغيب فتترك ظلال النخيل تناسب شيئا فشيئا ،إنه لا ينسى هذا المنظر كما

---

(1)المصدر السابق ص 12

لا ينسى منظر الصباح وما فيه من شاعرية يزيده جمالا تناثر الخيام في الضفة الأخرى من الواد فوق الرمال الذهبية بينما الأغنام ترعى هنا و هناك.[1]

و يضرب لنا الرحالة ليدر أمثلة لطيب المعشر لدى العرب وما شاهده في بسكرة من ضرب المودة لدى كبار السن الذين رآهم يحملون المسابح في أيديهم و يستطرد في الحديث عن أصل المسبحة ووظيفتها الدينية و يسوق آيات قرآنية كريمة تدل على فهمه العميق للحياة الروحية لدى العرب من خلال ما لمسه في بسكرة .

وفي يوم اقترح عليه واحد من هؤلاء ا أصدقاء أن يتجولا في حديقة (لاندون) وقد تحدث عن انشائها وما تحتوي عليه من ورود وأزهار و نخيل و أشجار ، ولفت نظره نخلة يتبرك بها الناس و تعتبر ذات قداسة لديهم Holly Tree وهنا يلح عليه فضوله فيبحث عن قصة هذه الشجرة وعن مثيلاتها وصلة مثل هذه المعتقدات بالدين وهل لها أصل في القرآن أو في السنة إلى أخر ما رواه من حكايات عن الشجرة و الجنة في الدار الآخر[2]

---

(1) المرجع السابق ص 19

(2)نفس المصدر ص 89 ـ90

بعد ذلك يعقد المؤلف فصلا خاصا لزيارة (سيدي عقبة) فقد ركب حافلة عمومية انطلقت به صباحا من بسكرة إلى تلك القرية ، ومثلما رأينا في بسكرة يصف ما شاهده من مبان و أزقة ضيقة وأيضا جلوس الناس كبارا و صغارا في المقهى ثم يقارنها ببسكرة و عمارتها المتميزة [1]

ويقول الكاتب أنه بينما تعتبر بسكرة عاصمة الزيبان فإن سيدي عقبة أقرب إلى المركز الديني فالناس يعتبرون هذه القرية محجة يفدون عليها من شتى أنحاء الجزائر و لا سيما الأتقياء منهم لذلك فإن زيارة المسجد ضرورية وهو الأمر الذي بدأ به الرحالة فهو يعرف أن الرجل المدفون فيه يعد من أعظم رجال الفتح الإسلامي و أن المسجد يقصده الناس للدراسة و الصلاة في هذا المكان حيث يوجد قبره و هو يعتبر أقدم بناية إسلامية في افريقيا [2]

ولكي يلقي نظرة على القرية صعد إلى المئذنة و شاهد جمال الطبيعة منها حيث كانت الشمس تتوارى شيئا فشيئا و رأى أشعتها الذهبية تنساب فوق رؤوس النخيل ، حينئذ شاهد المؤذن يصعد كي يؤذن لصلاة المغرب ، وهنا يغتنم الفرصة ليتحدث عن تاريخ الأذان منذ البداية في المدينة المنورة مشيدا ببلال أول مؤذن في الإسلام .

---

(1)المرجع السابق ص 101

(2) نفس المصدر ص 102

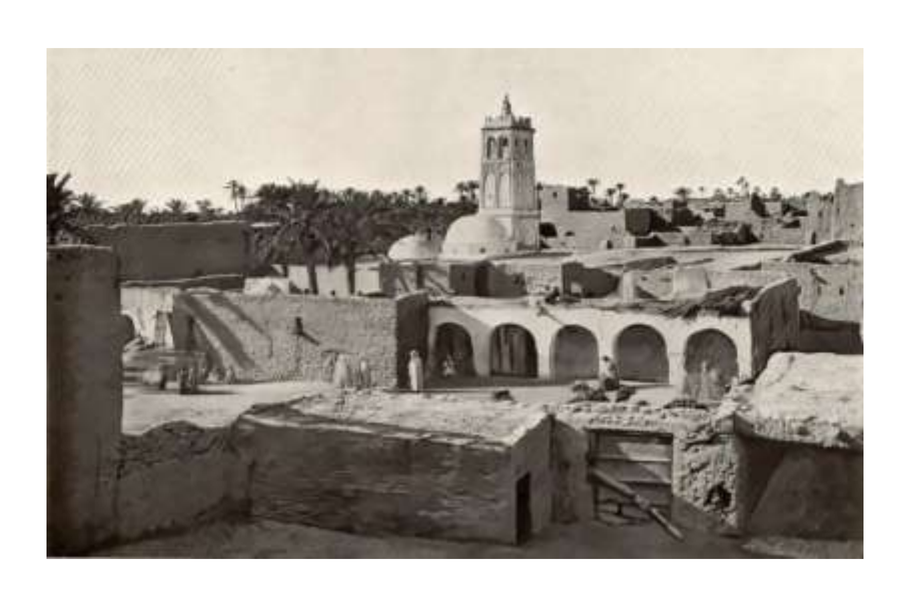
و تتاح للمؤلف ليدر فرصة الغداء على مائدة القاضي و كعادته يدقق في وصف أنواع الأطعمة التي يتذوقها و لا سيما الشعبية منها ، و حين هم بمغادرة المنزل قرأ له المضيف أية الكرسي عند وداعه فترجمها سعيدا بذلك بعد أن علم أنها تقرأ في مناسبات شتى، و في المساء عاد الرحالة ليدر إلى بسكرة مرة أخرى .

وفي الفصل العاشر من كتابه بسكرة بوابة الصحراء رصد جانبا أخر مما لاحظه في بسكرة و هوما أطلق عليه (رقصة الدرويش و المرابط) إذ ينقل إلى القارئ الإنجليزي صورة عن رقص الدراويش الذي كتب عنه كثير من الكتاب الغربيين بروح متعاطفة لأنهم رأوا فيه خصوصية مميزة في هذا البلد لأن مثل هذه المظاهر تجذب السائح العادي فما بالك بكاتب يبحث عن التقاليد التي تميز كل شعب وعن مزاجه و عقليته و معتقداته .

حضر بعد ذلك الرحالة ليدر (زردة) أقيمت بالقرب من مسجد سيدي زرزور الذي يصف موقعه وسط الواد وكيف أن الماء لا يصل إليه و ينقل لنا المؤلف قصصا عنه و كراماته من أفواه الناس و كيف يأتي إليه الناس كل عام من كل حدب و صوب حيث يحتفلون بتناول الكسكسي و بالرقص و القيام بالحركات البهلوانية الغريبة ....[1]

---

(1)المرجع السابق ص 228



مسجد سيدي عقبة



شارع بحي باب الضرب

وفي الفصل الأخير من الكتاب يعرض إلى التعليم في المساجد ببسكرة وقد لاحظ فيه مرحلتين :الأولى للمستوى ا ابتدائي الذي يحفظ فيه التلميذ القرآن و شيئا من النحو و الحساب ، أما المستوى الثاني أو العالي فهو يؤهل الطالب كي يكون فقيها في الدين و لذا يشمل النحو والصرف و البلاغة و العروض و المنطق و الحساب و الجبر بالإضافة إلى أصول الدين و علم التوحيد و التفسير و غير ذلك من العلوم الدينية و قبل هذا كله فإن القرآن هو أعظم شيء يتعلمه الطلبة ويلتزمون به [1]

ومن هنا يواصل ليدر وصف القرى في بسكرة مثل بني مرة و فلياش كما يلحظ أن بسكرة هي نقطة البداية لمن يتوجه إلى توقرت أو إلى طولقة و يصف كرم أهلها و بساطتهم . و يطيل في وصف النخيل ، زراعة و تلقيحا و جنيا .

ثم يختم ليدر رحلته إلى بسكرة بتلك العبارات التي تعبر عن ألمه لفراق بسكرة و أصدقائه العرب فيها و تظهر عاطفته نحو هؤلاء العرب و إلى الشعب الجزائري الذي يتطلع إلى الحرية و التحرر من احتلال فرنسا كما أنها في الوقت نفسه تعبر عن نظرة الكاتب لهؤلاء الذين يحبون بلدهم و يريدون له الخير.

---

(1) المرجع السابق ص 237.

الصحراء الجزائرية التونسية

يوميات رحلة هنري دوفالي*

الصحراء الجزائرية التونسية يوميات رحلة هنري دوفالي
نشر وتقديم : شارل مونوار و هنري شيرمان
طبع بباريس 1905 ، عدد صفحاته 214صفحة

ترجم الكاتب والمترجم الجزائري ميهي عبد القادر ،مذكرات الطريق ..رحلة في الواحات الجزائرية التونسية 1860- 1861 " للرحالة الفرنسي هنري دي فايريه ..،[1]

تعد رحلة "هنري دوفرييه"، من أوائل الرحلات الاستكشافية التي وصلت إلى منطقة بسكرة ،الذي انطلق من سكيكدة في 8 ماي 1859م، متوجها مباشرة نحو بسكرة عن طريق مدينتي قسنطينة وباتنة، ثم أكمل المسيرة ووصل القرارة في يوم 18 جوان 1859م، ووصل إلى غرداية في يوم 21 جوان، وفي متليلي التقى مع بعض الرجال التوارق من أجل مساعدته في زيارة بلدهم، وكان الهدف من

---

* journal du Route de Henri Duveyrier __ paris 1905

(1) صدر سنة 2015 عن دار الثقافة محمد الأمين العمودي بالوادي

هذه الرحلة التعرف على مرشدين من الرجال الطوارق من أجل التعرف على مناطقهم، ولكن هذه الرحلة باءت بالفشل نظرا لموقف السكان المعادي له، فرجع عائدا إلى سكيكدة.

ثم عاود هنري دوفرييه الكرة وكان ذلك في فيفري من سنة 1860م، وهي موضوعنا في هذه الورقة، حيث انطلق من بسكرة وزار وادي سوف ومنطقة الجريد التونسي، تحت حماية ممثلي فرنسا في المناطق التي يجوبها، ثم أمره الوالي العام برحلة نحو بلاد الطوارق، وفي هذه المرة تمكن هنري دوفرييه من كسب ثقة شيوخ المنطقة، وربط علاقات وطيدة معهم.

ودون في مذكراته العديد من المعلومات الهامة حول المناطق التي كان يزورها ويمر عليها، وقدم أيضا وصفا مهما عن منطقة بسكرة، خاصة وان هنري دوفرييه هو عالم جغرافيا بالإضافة لكونه رحالة، فدوّن العديد من المعلومات في هذا الجانب.

وكانت أنطلاقة هنري دوفرييه في هاته الرحلة من مدينة بسكرة، وكانت انطلاقته صوب وادي سوف في الفاتح من شهر فيفري 1860م.

فيكتب هنري دوفرييه أثناء تواجده ببسكرة وقبل انطلاق رحلته عن أهم القبائل الأفريقية المتواجدة في بسكرة في تلك الفترة، والتي سماها "القبائل الزنجية الممثلة في المستعمرة الصغيرة في بسكرة"، ويعددها كالتالي: 1 البورنو 2 الحاوسة 3 الباغيرمي4 الفتالا 5 المبوم6

المندارا 7 الكوينا 8 الكنمبو 9 التيدا 10 التيمبوكتو 11 الامبانا 12 الوداي 13 المنغا 14 الدورا 15 الكتسينا 16 البمبارا 17 اللوغوني 18 الدرجي 19 الأفادي 20 الإنغالا 21 الكوري 22 المغاري 23 المرجي 24 الكير كير 25 النغوزوم 26 الهداموا، ويضع ملاحظة وهي انه سوف يقوم بإتمام قوائهم هاته القبائل فيما بعد.[1]

ويشكل هؤلاء الزنوج كما يذكر دوفرييه حيا صغيرا من الزرائب المشيدة من جريد النخيل، يقع على حافة البساتين، القرب من بسكرة الجديدة، ويمثل في الحقيقة ضاحية صغيره لها، وترتدي النساء لباس البلاد التي جئن منها في حين اختار الرجال، لباس الشعوب التي هم في اتصال بها.

ثم يتنقل السيد دوفرييه لجانب آخر هو شئ من قبيل اختصاصه بحكم أنه عالم جغرافي فيذكر حول المجاري التي تخلفها الوديان والطمي الكثير الذي تحتوي على الكثير من الصدفيات المتنوعة الاشكال والأنواع، ويعطي الكثير من التفاصيل حول علم الأحياء في هاته الوديان ومجاري الوديان، ويضع العديد من النماذج والعينات التي يريد أن ينقلها معه من أجل اجراء الابحاث المدققة والمفصلة حولها.

---

(1) Sahara algérien et tunisien journal de route de Henri Duveyrier page 4

ويقول بعد ذلك توجهت مع أعوان التلغراف والسيد كولمبو لوضع مخطط لدشرة العالية الصغيرة التي يمكن رؤية نخيلها الطويل بالقرب من بسكرة، وكان ذلك من أجل تلقين الأعوان طريقة العمل، وتقع العالية على حافة الواد والتي تتهدم كلما فاض هذا الأخير وارتفع منسوب مياهه، ويذكر انه وجد هناك بقايات اساسات رومانية وأنابيب كبيرة ومنضدة، الكل مثبت على الحواف وعرته المياه.

وفي وسط الوادي وبالقرب من العالية توجد بناية رومانية بكل تأكيد تشد الانتباه لانها لا تتوفر على أبواب ولا على فتحات أخرى، وهي مليئة بالرمال حتى سطحها بقيت جدرانها في حالة جيدة لولا فتحة أو فتحتين صغيرتين شكلهما دائري احدثتها مدفعية صالح رايس قديما، الذي كان يضن هو أيضا ان البناية تخفي كنزا، وهو ما يدل على مدى سعة اطلاع ومعرفة هنري دوفرييه بالكثير من الخبايا والأخبار.

وفي يوم 15 جانفي يذكر السيد دوفرييه أنه قام رفقة السيد كولومبو بجولة إلى العين المعدنية " حمام الصالحين" وتقع هذه العين إلى الشمال مع ميل قليلا نحو الغرب، وتحيط الحمامات بناية تحوي غرفا لراحة المستحمين، المياه مالحة علاوة على ذلك تنبعث منها رائحة الهيدروجين الكبريتي، ودرجة حرارة الماء على حافة الحوض من حيث هي تسيل : 44.8 بالترمومتر. وفي الوسط في المكان الذي يتدفق منه الماء وهو في حالة غليان درجة الحرارة هي 45.1 درجة.

ثم يقول وغطس السيد كولمبو في الحمام أما انا فأكتفيت بوضع أرجلي فقط والتي أصبحت تؤلمني بعد وقت قصير.[1]

ثم يذكر السيد دوفرييه السبب الرئيسي الذي جاء من أجله إلى هذا الحمام وهو الحصول على عينات من الأسماك التي تعيش في الساقية الجارية من الحمام ويحتفظ ماؤها لوقت قصير نسبيا بحرارته وأيضا الأملاح المشبع بها هذه الأسماك التي تمكنت من الحصول على نماذج منها تشبه كثيرا تلك التي في مياه وادي ريغ الارتوازية.

ثم يذكر السيد دوفرييه أسماء لبعض النباتات التي وجدها بجوار الحمام وهي : الرمث، الكلخة، الخردق، السدرة، القندول.

أما اليومين الموالين وهما 17/16 فلم يذكر هنري دوفرييه معلومات سوى أنه تحصل فيهما على خريطة من طرف السيد سيكورا وهي خريطة رائعة كما يذكر للصحراء.

وفي اليومين الموالين وهما 19/18 جانفي يزور السيد كولومبو الذي قام بتعريفه فقال هو ضابط صف قديم، يدير الآن المدرسة العربية الفرنسية في بسكرة، وهي مدرسة يمكن للفتيان العرب أن يتعلموا الفرنسية ومبادئ العلوم، يرتادها عدد لا بأس به من التلاميذ، وقد وقفت على مدى التقدم الذي أحرزه تلاميذ السيد كولومبو، ويعتبر معلمهم ضليع إلى حد بعيد في اللغة العربية وهو يطور معارفه كل يوم بهمة ومثابرة، ويبلغ مرتبه1800 فرنك للسنة، لديه مساعد عربي.

---

(1) المرجع السابق ص 6

وفي 1 فيفري 1860 يذكر هنري دوفرييه أن غادر بسكرة بعد أن جاء لتوديعه كولومبو وفاكلس والسيد مانود والكولونيل الذي قام بتوديعه منذ البارحة.

ثم بعد ذلك يبدأ هنري دوفرييه رحلته نحو منطقة وادي سوف ويذكر كل المحطات الي توقف بها على طول خط الطريق ويذكرها بشيء من التفصيل وبالأحداث التي حصلت له في طريقه.



حمـام الصالحين بسكرة

رحلة في ربوع الأوراس*

هيلتون سيمبسون

في المقدمة يذكر « هيلتون سيمبسون » أنه قام برحلات ثلاث :الأولى من سنة 1912 ـ 1913 و الثانية من 1913 ـ 1914 و الثالثة من 1919 ـ 1920 وكان هدفه هو جمع عينات من الصناعات التقليدية الأوراسية و كذا جمع ما يمكن من معلومات عن السكان في شتى مجالات الحياة ، العادات و التقاليد ، الطب ، العمارة و غيرها .

ونلاحظ أنه لم يقتصر في رحلته على المدن الصغيرة بالأوراس و لكنه اهتم بالقرى و المداشر صغيرة كانت أم كبيرة و تحمل الكثير من أجل هذا الغرض العلمي ، فقد امتطى ظهور البغال و الخيول و أحيانا كان يقطع المسافات الطويلة على الأقدام و يجالس الناس و يتحدث إليهم بهدف المعرفة و الاطلاع مثلما فعلت زوجته التي احتكت بالنساء عن قرب و استطاعت أن تدخل بيوت السكان بالأوراس.

Among The Hill_Folk of Algeria__ journeys Among The shawia of tha Aurés Montains *

_M.W.Hilton Simpson __New York 1921

تبدأ رحلة هيلتون سيمبسون من بلدة القنطرة لأنها فم الصحراء mouth of desert فهي بوابة الصحراء مثلما هي بوابة الأوراس لم يريد أن يسلك طريق بني فرح تماما مثل مدينة بسكرة . فهذه البلدة متميزة فهي البرزخ لمن يصعد إلى الأوراس أو ينزل إلى الصحراء سواء ركب القطار أم غيره .

ولما كان الرحالة سيمبسون جغرافيا فإننا نتوقع في كل القرى التي زارها أن يتحدث عن المباني و عمارتها مثلما فعل عن القنطرة ، فهو يصف المساكن التي بنيت بالطوب في تلك الفترة كما يغطي الآجر بعضها ، كما أطال في وصف الجبال المحيطة بها و كذلك وصف أشجارها و سكانها و الناس وجلوسهم في المقاهي يلعبون الورق والأحجار و في الوقت نفسه يستمعون إلى الأغاني ، و لفت نظره انتشار الفقر في هذه الواحة الفلاحة .ولا يغرب عن باله ما رأه من احتفال السكان بالمناسبات الدينية و يهتم بعنايتهم بأضرحة (أولياء) يعتقدون في صلاحهم و هذا ـ كما يقول ـ ليس خاصا بالقنطرة و لكنه عام في بسكرة حين يحتفلون سنويا بهذا الولي أو ذاك فتقام المآدب وتذبح الخرفان و توزع المأكولات على الفقراء كما يتصدق عليهم الناس بالدراهم ، و يصف الأعلام التي تخفق فوق القباب التي تعلو المساجد ، و بكلمة واحدة فإن الكاتب يبدو لنا مبهورا بهذه المظاهر وبصوت المؤذن الذي ينطلق من مئذنة المسجد يدعو الناس إلى

الصلاة أثناء ما عرف بالزردة ، فهذه المظاهر لم يسبق له أن شاهدها وهي من ملامح المجتمع هنا و لا يجد لها نظيرا في بلده .

و صورة المجتمع في القنطرة لا تكتمل إلا بالحديث عن المرأة فيها ، فهي تقضي وقتها في البيت و خروجها نادرا إذ أن مهمتها تنحصر في تربية الأولاد عكس الأوربية ، وإذا خرجت لجلب الماء أو غسل الثياب فإن هذا يحدث تحت رقابة الزوج أو أقاربه .

على أن مكوثه الطويل نسبيا بالقنطرة قد أتاح له ولزوجه أن يختلطا بالسكان و يدخلا بيوتا و مساكن كثيرة ، لذلك يصف الأثاث وشكل البيوت و عمارتها بالتفصيل كما لاحظ أن السكان يرحبون بهما و يقدمون لهما الطعام ، وقد شاهد كيف تصنع النساء ((البرنوس والحايك)) [1]

وهكذا ينهي الكاتب ملاحظاته عن هذه البلدة ، عن سكانها ، عن حياتهم ، عادتهم و تقاليدهم بحيث كتب حوالي عشرين صفحة عنها لأهميتها من شتى النواحي ، وكان لابد أن ينطلق منها إلى بني فرح حيث ركب البغال إلى هذه القرية و صحب معه مترجما كي يكون واسطة بينه وبين السكان ، والشيء الذي ملك عليه لبه هو تلك المناظر التي مر بها في طريقه و الوديان التي رآها ثم الجبال التي

(1)رحلة في ربوع الأوراس ص 34

شاهدها و كأنها بانوراما مختلفة الألوان متجددة الملامح ، وقد وجد في انتظاره « قايد » البلدة حيث صحبه إلى بيته ، و بعد راحة قصيرة بدأت دراسته للقرية ، لمنازلها و سكانها وهنا تكون المقارنة بين القنطرة و بين بني فرح و قد لاحظ أن المرأة هنا تتمتع بحرية واضحة فهي تخرج من المنزل وتشارك في الحياة نسبيا بل و تصنع «الفخار» الذي تتفنن في صناعته أشكالا وألوانا .

ومما لفت نظره أن النخيل في هذه القرية لا تعطي تمرا جيدا عكس القنطرة ولعل هذا راجع إلى إرتفاعها الكبير عن سطح البحر ، ولكنها تمتاز بوفرة الخضر و الفواكه و الأشجار المثمرة .

وفي أحد الأيام تناهى إلى سمعه صوت مطرب يتجول في الشارع فسارع بدافع الفضول ليرى الناس بدورهم يسارعون إليه ثم شاهد مجموعة من الفتيات يتهادين في الطريق وهن يحملن ملاعق خشبية و يلبسن ثيابا من الحرير وفي معاصمهن أساور من فضة و الكل ينشد (الملعقة تمرح في الطريق ....السحب تعلو في الفضاء ...أن للمطر أن يسقط)[1] يحدث هذا أثناء توزيع الطعام على الناس احتفاء بالمطر الذي هو رمز الخصوبة و النماء .

و يغادر الرحالة سيمبسون بني فرح نحو جمورة ، فالطبيعة ربطت بينهما و قد شدته المناظر و هو يتجه إلى هذه الواحة مثلما شدته وهو

---

(1) المرجع السابق ص 45

يغادر القنطرة إلى بني فرح فيصفها بانبهار شديد ، فحين أطل على هذه الواحة شاهد المنحدرات التي تصطبغ تربتها بالعديد من الألوان كالأصفر و الأحمر و الأرجواني مع جبال تحيط بها من الجانبين فتبدو الواحة الممتدة على الوادي الكبير و كأنها لبست حلة زاهية في فصل الشتاء ، و قد سحره المنظر ورأى المياه وهي تتدفق من التلال المحيطة بجمورة و يزيدها منظر الغروب فتنة حيث تتهادى أشعة الشمس من فوق هذه التلال [1]

أما فيما يتعلق بالعادات و التقاليد وهي من الأمور التي يركز عليها فإنه لا يرى فرقا بين ما رآه في جمورة و ما شاهده في بني فرح ولدى الشاوية بوجه عام .فالأعراس و حفلات الخطوبة و الزواج هي نفسها تقريبا .

وتابع رحلته من الأوراس إلى (منعه) مرور ببني سويك التي أثارت انتباهه بموقعها الحصين في الجبل ، وقد وجد الرحالة سيمبسون راحته في الاقامة فيها في ضيافة قايد البلدة ، فبهر بموقعها ، حدائقها ، مياهها العذبة الغزيرة و حيوية سكانها ، لذلك يطنب في وصف مبانيها و منازلها و مسجدها و أيضا الحمام و المقهى والحوانيت ، كما أبدى اهتمامه بالصناعة الجلود و الخزف و غير ذلك من الصناعات المحلية .

(1) المرجع السابق ص55 . 56

بعد زيارته للقري التالية : تاقوست ـ معافة ـ شير ـ عين تاغيث ـ نوادر ـ ثنية العابد ـ بو زينة .... يشد المؤلف الرحال إلى ((البرانيس)) التي يسكنها عرش أولاد زيان مثل جمورة .ثم يتجه إلى ((مشونش)) مارا ((بالدروع)) ولكنه لم يطل في وصفه لهذه الأخيرة بينما أسهب نسبيا في وصف الأولى فقال : ((إن المنظر ساحر حين يطل المرء من فوق مشونش نحو الصحراء التي تبدو كأنها سجادة مزركشة الألوان)) [(1)]

فقد جاب الرحالة هيلتون سيمبسون الأوراس من الغرب و الوسط ثم أراد أن يجوب منطقته الأخرى من الجنوب إلى الشمال ، وقد كانت نقطة الانطلاق هي ((بسكرة)) ملكة الزيبان The queen of ziban وهو كغيره من الرحالة الأجانب معجب بهذه المدينة ، بنخيلها ، حدائقها ، طقسها ، ثم اتجه مباشرة إلى زريبة الوادي و في الطريق أقام بسيدي عقبة و التقى بالشيوخ المسنين فيها كما زار هو من معه المسجد الذي يحمل اسم هذا الصحابي العظيم ، ثم غادرها إلى ((عين الناقة)) ثم انطلق إلى ((خنقة سيدي ناجي)) تلك الواحة الكبيرة التي تقبع على بعد خطوات من الجبل و قد مر بواد العرب كما مر بقرية ((ليانة)) ثم ((بادس)).

و النتيجة التي يمكن أن أسجلها هي أن هذا العالم الجغرافي تحمل الصعوبات كي يدرس و يكتشف ، وقطع المسافات في الجبال

---

(1) المرجع السابق ص 130

والمرتفعات و اجتاز العديد من الشعاب و الوديان ليقدم لمتحف « اكسفورد » وللطلبة و الباحثين و القراء صورة لمنطقة غنية بالتراث و ةمتميزة في حياتها الاجتماعية و الاقتصادية و متميزة أيضا بطبيعتها الساحرة وجبالها الشاهقة .



أحد أحياء بسكرة القديمة

إلى بلاد الأزرق بسكرة و الواحات المحيطة *

جـــون هيرابيال

يكتسي الكتاب أهمية بالغة في كون مؤلفه سنحت له الفرصة لقضاء فصل الشتاء مرتين في بسكرة، المرة الأولى لما جاء في مهمة رسمية كممثل للكاردينال لافيجري ، في موسم شتاء 1889-1890، أما المرة الثانية فكانت خلال شتاء 1896-1897 لما قدم إلى المنطقة كسائح بسيط، و بقي بها لمدة ستة أشهر، جمع خلاله مادة علمية من أفواه الناس وملاحظاته الشخصية و هي مدة كافية مكنته من أخذ نظرة على جغرافية و مناخ المنطقة، وكذا " الإنجازات الضخمة التي أقامتها فرنسا هناك!؟" –حسب رأيه-

توزع صفحات الرحلة التي بلغت 214صفحة في كتاب من حجم الصغير صدر بباريس سنة 1899 و قسمه صاحبه إلى ثلاثة أقسام، حيث فصل فيه كل ما يتعلق ببسكرة من الجانب الطبيعي والمناخي والبشري. إن ما يـؤكد عليه السيـد جون هيرابيال أن بسكرة أضحت

---

* Au pays du bleu Biskra et les Oasis Environnantes_ Jean Hurabielle _ paris 1899

مركزا أو محطة شتوية بامتياز يتوافد إليها السياح من شتى الأنحاء هــروبا من بــرد أوربا الــذي لا يطاق و بحثا عــن الراحة و الاستجمام

تبدأ جزئيات الرحلة تتدفق على قلم الكاتب عندما يمتطي القطار في رحلة تستغرق اثني عشرة ساعة من قسنطينة نحو هدفه الأخير ، ويؤكد السيد هيرابيال على تلك المشقة التي يلاقيها المسافر من أوربا إلى بسكرة. و لكنه بمجرد الوصول إلى مبتغاه ينسى كل متاعب السفر لما سيجده من دفئ و متعة لا يحس بها في أوربا.

كما وصف المؤلف وصفا دقيقا و مفصلا للطريق الموصلة إلى بسكرة انطلاقا من مدينة الجزائر، إنه سفر ممتع تتخلله مناظر طبيعية خلابة، و على سبيل المثال منطقة القنطرة التي تشكل حدا فاصلا بين المنطقة التلية و الصحراوية، وبها توجد ثلاث واحات و نهر صغير، و مبـــاشرة بعده يجد السائح نفسه في بيئة صحــراوية قاحلة ولأهمية هذه البلدة أطال في وصف سكانها وأشجارها و مساكنها ، وقد لفت نظره انتشار الفقر في هذه الواحة الفلاحية و لكنه لم يبحث عن سبب هذا الفقر شأن أمثاله من الغربيين ، طبعا يهتم بغرس النخيل و فلاحته و التمر و فائدته لسكان الصحراء و يقارن بين سكان الحضر و بين البدو الرحل الذين يقصدون هذه البلدة في أوقات معينة و خاصة حين يقصدون جبل متليلي أثناء الصيف .

يقول جـون هيرابيال : « وبعد برهة قصيرة من مسيرنا خلال هذا الممر الضيق، طالعتنا الأشجار والخضرة التي كانت تحف بجانبه

الأيسر لتعلن وصولنا إلى المساكن البشرية، ففي هذا المكان توجد قرية القنطرة ذلك الاسم الشهير ،كنا في أواخر فترة ما بعد الظهيرة، التي يطلق العرب عليها اسم "العصر" عندما دخلنا إلى الظلال التي كانت ترحب بنا، واتجهنا مباشرة إلى منزل رئيس القرية، كان منزل رئيس القرية، شأنه شأن المنازل الأخرى كلها، يقع على حافة الوادي عند سفح الصخرة البيضاء مباشرة، وقد اختير هذا الموقع تفادياً للأخطار التي تنجم عن السيول التي كانت تنهال على المنخفض الوسيط خلال موسم الأمطار، كانت آثار الماء واضحة في كل أنحاء الوادي، كما شاهدنا أيضاً بعض المنازل التي دمرتها السيول، وكانت قد بنيت على ارتفاعات منخفضة، كانت غزارة المياه في الآبار قد بلغت حداً ،جعل فيضانها كافياً لملئ خزان كبير كانت تنساب من جوانبه نهيرات صغيرة يحسبها الناس طبيعية، وتظللها أشجار التين والرمان، وكانت المنازل؛ شأنها شأن البساتين؛ على شكل صفوف من الرفوف، بعضها فوق بعض في اتجاه ارتفاع الجبل .))[1]

وفي طريقه إلى بسكرة ، شد انتباهه تلك المناظر الجميلة من الوديان و الجبال خاصة (لوطاية) يقول في ذلك :((عندما تقترب من واحة بسكرة عبر السكة الحديدية ومن النظرة الأولى تبدو رائعة ، فالشمس الغاربة ترسل أشعتها الأخيرة ،وغابات النخيل الخضراء

(1) المرجع السابق ص 13

تتجلى في عمق أحمر أجوري أو رملي يجعلنا نمتع أنظارنا بهذه الطبيعة العجيبة الخلابة الغارقة في محيط من نور ذهبي ،و الجبال البعيدة تتلون على التوالي بالوردي فالأحمر ،فالبنفسجي ، فالأخضر ، ولكن ألوان و أطياف هذه اللوحة تتعب الفنان الذي يحاول محاكاتها و رسمها »[1]

يتساءل صاحب الكتاب عن الأسباب و العوامل التي جعلت الأوربيين يتوافدون على بسكرة من مختلف الأرجاء، ثم يجيب على السؤال بتحديدها في المناخ الدافئ خلال فصل الشتاء و جمال مناظرها، إنه يؤكد على أن مناخ بسكرة ينفرد بخصائص لا نجدها في كل أوربا، حتى أنه يثبت بأنه يتفوق بكثير على مناخ شاطئ أزور بفرنسا، ثم يقارن بينه و بين مناخ مدينة نيس الفرنسية .

يرى الكاتب على غرار باقي مدن الجزائر ،تشكلت في بسكرة منطقتان نحددهما فيما يلي:

1- المدينة الأوربية:

تلك التي بناها الاستعمار الفرنسي بغرض تشجيع الاستيطان الأوربي في المنطقة، لقد ضمت المدينة مؤسسات و بنايات ذات طراز أوربي، و حسب جون هيربيال فإن الداخل إليها ينتابه إحساس و كأنه

(1) المرجع السابق ص 14

موجود بفرنسا، غير أن الشيء المميز لهذه البنايات استعمال مواد البناء المحلية في إنجازها و كذلك طريقة البناء التي تمت حسب عادات السكان، فاستعمل الطوب المجفف تحت أشعة الشمس، وجلبت الحجارة من الجبال المجاورة لاستغلالها في ترصيف الطرقات و بنا المنازل و المؤسسات العمومية. كما تتميز المدينة بوفرة غطائها النباتي فمعظم الشوارع و المؤسسات العمومية غرست بها أشجار استوائية تتماشى مع مناخ المنطقة، و تنبعث منها روائح زكية، ويتم سقيها دوريا عن طريق قنوات يتم الاعتناء بها بشكل جيد

ومن هنا يقدم لنا صاحب الكتاب مجموعة من معالم المدينة الأوربية، و التي تبين حسبه الجهود التي بذلتها الإدارة الاستعمارية في تطوير المنطقة و إدخال الحضارة إليها و منها على سبيل المثال:
مستشفى لافيجري(الحكيم سعدان حاليا)ـ فندق روايال ـ دار الضياف(دار الثقافة أحمد رضا حوحو) ـ كنيسة القديس برينو Saint Bruno الواقعة في وسط حديقة المدينة(المركز الثقافي الاسلامي)ـ السوق المغطاة.

و لعل أهم معلم معماري تناوله المؤلف حصن سان جرمان الذي بني في شرق المدينة،والذي استغرق بناؤه ثلاث سنوات –أي من عـام 1849 إلى 1851-، و تكمـن أهميته في شساعة المساحة التي بني

---

(1) المرجع السابق ص 37

فوقها، فمثلا بلغ طوله مائتي متر (200 مترا)، إلى جانب المرافق المتعددة التي احتواها، فنجد فيه مركزا للقيادة و مستودعات للذخيرة و العتاد و مخازن للأغذية و أعلاف الحيوانات و مستشفى والخزينة وإقامات للضباط، أما في أسفل هذه البنايات فتم إنجاز خزانات كبيرة للمياه تستغل من قبل جنود الحامية في أوقات الحصار أو الجفاف، حيث يمكنها أن تمدهم بالمياه لمدة ما بين ثلاثة و أربعة أشهر، و عموما فإن بناء هذا الحصن كان بهدف توفير الحماية لسكان المدينة الأوربية [1]

2- بسكرة القديمة و قصورها

يذكر هيرابيال أنه رغم توفر المدينة الجديدة –أو الأوربية- على كل المرافق التي يحتاج إليها السائح أو المريض كالسوق و الدكاكين العربية و الميزابية و المقاهي العربية، فإن ذلك لا يلبي غرضه من القدوم إلى المنطقة إذا لم يزر بسكرة القديمة و التي تتشكل من المدينة القديمة المخربة إلى جانب عدد من القصور، فأطلال المدينة القديمة تقع على طريق تقرت، و حسبه أنه بعد تهدم المدينة القديمة اضطر سكانها إلى الاستقرار في القصور أو سكنى الخيام، كما وجد أن كل قبيلة أو فرع حافظ على انتمائه القبلي، و يعطينا أسماء لقبائل و فروع كالعبيديين و أولاد سيدي بركات و أولاد سيدي مالك و الذواودة و بني سويد.

---

(1) المرجع السابق ص 37 ـ38

كما نصادف في نفس المنطقة تجمعات سكانية عبارة عن مجموعة من الدشرات، و التي تمتد حسبه على مسافة طولها خمسة كيلومترات و على عرض يتراوح مابين مائة و خمسمائة متر على الضفة اليمنى لوادي بسكرة، لقد بنيت هذه البيوت بالطوب .....، و هي لا تتمتع بأي طراز معماري واضح، وكل ما يميزها تلك الغرابة في شكلها، و كذا في الأماكن التي بنيت فيها حيث وجدت وسط غابة تحوي 150000 نخلة و 6000 شجرة زيتون، و بين هذه الأشجار أقام السكان البساتين التي تحوي أشجار البرتقال و الليمون و الزيتون وحقول الحبوب و يبقى أهم محصول هو التمر [1]

ففي الفصل الرابع من الكتاب : تحدث هيرابيال فيه عن مدينة بسكرة القديمة يصف لنا عدد منازلها فيقول: ((عند زيارتي الخاصة للمنطقة في فصل الشتاء السابق علمت أن ما يسمى بسكرة القديمة يوجد بها المناطق التالية : كرة (13منزل) باب الضرب (128منزل)المسيد(149منزل)باب الفتح و الرقيقة (49منزل)رآس القرية (96منزل)مجنيش و سيدي بركات (167منزل) قداشة (45منزل)أي المجموع 647منزلا))

لقد تمكن كثير من الأوربيين الوافدين على المنطقة من الدخول إلى هذه المساكن و الاطلاع على ما بداخلها، و ذلك بعد ظهور نوع من

(1) المرجع السابق ص 47

التعايش بين السكان المحليين و الأوربيين، كما يذكر صاحب الكتاب الذي يعطينا وصفا دقيقا لهذه المساكن، فيذكر بأنها تتميز بالبرودة لأنها بنيت بشكل يحميها من أشعة الشمس، كما تم وضع بعض الفجوات على السطح حتى تسمح بمرور الهواء و الضوء إلى الداخل. و يذكر أن مساكن الأعيان تشبه كثيرا المساكن الأوربية.

ويبدأ الكاتب ملاحظاته عن عادات و تقاليد سكان بسكرة القديمة،يذكر أن نساءهم كن يقمن بأعمال منزلية مختلفة، فبعضهن ينسجن الصوف و البعض الآخر يجففن الحناء و أخريات يفتلن الكسكسي، أما الرجال فحسبه لا يبذلون أي مجهود، فتراهم جالسين أمام دكاكينهم ....الموزعة على الأزقة الضيقة، و كل ما يقومون به جني المحاصيل و حصد الحبوب في أوقاتها، ودون ذلك تراهم ملفوفين في برانيسهم و مستلقون على الرمال، يشاهدون مرور "الرومي" أمامهم دون أن يعيرونه أدنى اهتمام، و قد يلعبون بعض الألعاب أو يتجاذبون أطراف الحديث في مواضيع مملة، و لكنه يشير إلى تدينهم الشديد فهم لا يتأخرون أبدا عن أداء الصلاة في أوقاتها).

أما فيما يخص كبار السن فتراهم يفضلون أماكن معينة يجتمعون فيها، فقد يقسمون الماء بين أصحاب البساتين، و قد يعالجون قضايا مستعصية لأنهم من أهل التجربة في الحياة، أما الأشراف و الأعيان منهم فقد تراهم يتحدثون عن ماضي أجدادهم المجيد[1]

---

(1) المرجع السابق ص 51

كما استرعى انتباه المؤلف تلك الأخلاق الحميدة التي يتميز بها المجتمع البسكري، و من ذلك انعدام الاختلاط بين الرجال و النساء، فلا نصادف في الشوارع رجلا يتحدث مع امرأة، و الفتيات اللائي بلغن سن الزواج و تلك المتزوجات لا يخرجن إلا نادرا و يعفى من ذلك العجائز اللائي بلغن من الكبر عتيا، كما لاحظ ان النساء يلبسن الكثير من الملابس، ربما حشمة و لستر أجسادهن حيث لا يرى منهن أي شيء. كما يخبرنا على مراسيم الزواج الذي يتم حسبه "وفق تقاليد غريبة"، فلا يسمح للمقبل على الزواج أن يرى خطيبته، بل أن كل شيء يتم بين الآباء، كما يمكن للشاب أن يكلف والدته لخطبة إحدى الفتيات، أو قد يطلب ذلك من إحدى العجائز مقابل هدايا ومبلغ من المال[1]

ولم يهمل المؤلف التطرق إلى الجوانب الاقتصادية للمنطقة، فسوق المدينة الحديثة – أو الأوربية- يعبر بصدق على حيوية ذلك النشاط، جلبت أنظار الأوربيين و الزوار عامة، حيث يخبرنا هيرابيال انه احتوى كل عجيب و غريب، ففيه تعرض السلع القادمة من باريس، غير أن أهم جهة تجلب اهتمام الزائر تلك التي تعرض فيها الزواحف المحنطة و بعض الآلات الموسيقية العربية و خاصة الناي و السكاكين المصنوعة من قبل الطوارق إلى جانب الحصائر و الأغطية التي تنسج في نفس المكان، و يوجد بالسوق أيضا جهة يباع فيها الملح على شكل

---

(1) المرجع السابق ص 14

كتل و الخشب....الذي يجلب على ظهر الأحمرة و الجمال من منطقة الوطاية و الصحراء[1]

يتحدث المصدر عن النشاط الفلاحي الذي يمارسه السكان، وتنوع المحاصيل الزراعية و جودتها، فإلى جانب محصول التمور، تنتج المنطقة محاصيل أخرى و منها البرتقال حيث وجد نوع من البرتقال"sanguines " الذي يتميز بمذاق خاص لا نجده في أي مكان آخر، كما وجدت بساتين لغرس الخضر الفرنسية و التي حققت نجاحا كبيرا[2]

وفي وسط المدينة لاحظ المؤلف أنها تعج بالمقاهي العربية، وهي نفس الملاحظة التي تطرق إليها كتاب آخرون، و كان السياح الأوربيون يجدون فيها الكثير من المظاهر الغريبة عليهم، و منها رقصات أولاد نايل، غير أن الجو داخل المقهى كان لا يطاق بسبب "تلك الأصوات المزعجة المنبعثة من الآلات الموسيقية و رائحة التبغ فينتج عن ذلك ضيق في الصدر و آلام في الرأس [3].

كذلك وجد في المدينة مقهى يهودي يسمع الداخل إليه عزف الكمان و أغاني تؤديها مطربة يهودية، و الملاحظة التي يجب الإشارة إليها أن صاحب هذه المقهى و كل موظفيه من اليهود

---

(1) المرجع السابق ص 38 ـ39.

(2)نفس المصدر ص 18

(3) نفس المصدر 39

وعند حديثه عن أهم محطة للعلاج (حمام الصالحين) يقول: ((رغم بعده عن المدينة بستة كيلومترات، أصبح مكانا هاما يتوافد عليه الناس، خاصة خلال فصل الشتاء لفوائده العلاجية كما يؤكده الأطباء. و استجابة لاستقبال هذا العدد الكبير من المرضى و السياح قامت الإدارة الاستعمارية بعدة ترميمات، و من أهمها ترميمات 1891 التي قامت بها الشركة العامة لوادي ريغ و بسكرة.

خضع تسيير الحمام إلى تنظيم محكم، فقسم إلى عدد من أحواض الاستحمام، فنجد في كل حجرة حوضين متلاصقين، الأول به مياه حارة بنفس درجة حرارة المنبع و المقدرة ب 45^0 مئوية، والآخر به مياه تم تبريدها لمدة اثني عشرة ساعة))[1].

و نظرا لأهمية حمام الصالحين بالنسبة للإدارة الفرنسية أنجزت عليه العديد من الدراسات، و منها دراسة مقارنة بين محطة بسكرة ومحطة حلوان بمصر، و التي توصلت إلى نتيجة مفادها أن محطة بسكرة هي الوحيدة التي بإمكانها منافسة محطة حلوان فيما يخص خصائصها العلاجية، فهي تتوفر على كل خصائص الحمامات المعدنية ذات الجودة العالية[2]

---

(1) المرجع السابق ص 23

(2) DR Weisgerber. Biskra et Hélouan. Deux stations hivernales et thermales de l'Afrique du nord. Paris, imprimerie Charles Schlaeber, 1896, p. 5.

تؤكد نفس الدراسات، و خاصة الأثرية منها، أن استغلال الحمـام يمتد إلى العهد الروماني، إلا أنه في بـداية الاحتلال الفرنسي لم يخضع إلى أي ترميمات –ربما لانشغال المستعمر بقمع حركة المقاومة-، و أولى الترميمات بدأت في عام 1857 بحفر حوض مستطيل الشكل تمت تغطيته بسقف من القرميد، و أحيط ببعض البنايات عبارة عن غرف يقيم فيها الضباط و الجنود، و حتى السكان المحليون الذين يحضرون للاستحمام ، إلى جانب مسكن للحارس وإسطبل للحيوانات[1]

و لعل من الأمور التي يجب الإشارة إليها أن الإدارة الفرنسية فصلت بين أحواض الاستحمام المخصصة للأوربيين و تلك المخصصة للجزائريين، فبالنسبة لهؤلاء خصص لهم الحوض القديم، و في مقابله بنيت أحواض أخرى جديدة و قاعة للعلاج بالمياه المعدنية تتوفر على آلات تستخدم للغرض،أما تزويد القاعة بالمياه المعدنية فيتم بواسطة مضخة مباشرة من المنبع. و يضاف إلى كل ذلك المرافق التي يحتاج إليها المستحم، ففي عام 1896 خضع حمام الصالحين لتوسعة هامة، شملت مشروع إنجاز عدد من المكاتب و القاعات ومطعم إلى جانب فندق لإقامة الزوار[2].

---

(1) المرجع السابق ص 10

(2)نفس المصدر ص 10 ـ11

قدر عدد الأحواض المستعملة في الاستحمام بثمانية أحواض، طول كل واحد أربعة أمتار و عرضه متر و نصف و يكون مرفقا بقاعة للاستراحة، كما كانت مفصولة عن بعضها البعض ، و كل حوض يمكنه استيعاب عدد معتبر من المستحمين[1]

و من الصعوبات التي كانت تعترض المتوجهين إلى الحمام، سوء الطريق و مشقتها، جعلت المرضى و السياح الذين يمتطون السيارات يعانون الكثير قبل الوصول إلى الحمام، و لهذا فضل الكثيرون منهم التنقل على ظهور الدواب، و لكن ابتداء من عام 1895 تم إصلاح الطريق إلى جانب ربط المدينة بالحمام بعدد معتبر من العربات بعضها مكشوف و بعضها الآخر مغطى و تجرها الخيول، كما أنها لا تتوقف عن السير طول اليوم لتسهيل تنقل الأشخاص[2]



(1) المرجع السابق ص 10

(2)نفس المصدر ص 11

ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا*

هاينريش فون مالتسان

-عنوان رحلته : ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا –قام بترجمتها للعربية د.أبو العيد دودو : عدد الأجزاء : 4 **الجزء الأول** ، وتحدث فيه المؤلف عن مدينة الجزائر وما حولها. أما **الجزء الثاني** ، وصور فيه بعض المدن الجزائرية التي أقام فيها حينا أو أحيانا ، أما **الجزء الثالث** ، وسجل فيه مالتسان رحلته إلى شرق البلاد وجنوبها ، حيث من قسنطينة ينطلق نحو الصحراء ، فيزور مدينة الأغواط والجلفة وعين ماضي. ويصف في **الرابع** بعض المدن المغربية التي زارها والحياة فيها

هاينريش فون مالتسان Heinrich Von Maltzan هوعالم آثار و رحالة ألماني ، أهتم بحياة الشعوب الشرقية و خاصة العربية زار المغرب والجزائر و تونس كما زار مكة متنكرا في زي حاج وكتب تقريرا في 750 صفحة عن رحلته تلك

---

heinrich von Mattzen __Drei Jahre im nordwesten von Afrika__Leipsig 1863 *

درس القانون في هايدلبرگ، ولكن لاعتلال صحته، أمضى بقية حياته في أسفار في البلدان الدافئة . فسافر إلى المغرب والساحل البربري(الجزائر) ثم عاد إلى بلاده في 1854. ثم سافر إلى مصر وفلسطين والمشرق العربي.

وفي 1856-1857 سافر مرة أخرى إلى الجزائر. وفي 1858 وصل إلى مراكش. وفي 1860 شرع في الذهاب للحج إلى مكة. وقد وصف رحلة حجه في كتاب Meine Wallfahrt nach Mecca الصادر في لايپزيگ عام 1865، إلا أنه اضطر إلى الفرار لينجو بحياته إلى جدة بدون زيارة المدينة المنورة ،ثم زار بعد ذلك عدن و ممباي . ثم عاد ليدرس لعامين في أوروبا. و عاد ليتجول في جزر البحر المتوسط ثم ذهب للجزائر تارة أخرى . ثم زار عدن مرة أخرى في 1870 ، ونشر كتاباً بعنوان رحلة في جنوب بلاد العرب ، توفي في 23 فيفري 1874

جنوب رحلته للجزائر : قام الرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان برحلته إلى الجزائر في أواسط القرن التاسع عشر ، وقضى هناك ثلاث سنوات ، ليقدم في يومياته التي وضعها خلال إقامته الجزائرية نظرة شاملة عن الجزائر. ولعل هذا بالذات ما يميز كتاباته عن الكتابات الأخرى التي وضعها بعض مواطنيه من الرحالين الألمان . فقد اكتفى فيلهام سيمبر في رحلته التي قام بها إلى الجزائر سنة 1831 ومكث فيها بضعة أشهر ، إذ أرجعه المرض إلى بلاده في صيف سنة 1832 بوصف مدينة الجزائر ونواحيها ، والتعريف بسكانها وأوضاعهم الاجتماعية ، والحديث عن الحركة الصناعية والتجارية والثقافية . واكتفى الأمير

بوكلر موسكاو كذلك بوصف بعض مناطق الساحل الجزائري ، والتعليق على بعض الأحداث التي وقعت خلال زياراته للجزائر. وكان موريتس فاغنر قد اقتصر بدوره على مناطق معينة ، فزار عددا من المدن في الولايات الثلاث ، إلا إنه من ناحية أخرى لم يقف عند حدود المناطق المحتلة ، فقد أتيح له ما لم يتح لغيره ، وهو زيارة مدينة معسكر وما يليها من المناطق التي كانت تابعة لدولة الأمير عبد القادر.

أما رحالتنا هاينريش فون مالتسان فقد أمكنه أن يتجول في الجزائر طولاً وعرضا لنفوز منه بيوميات دقيقة ، وبرحلة ساخرة لما التقطه من مشاهد ومفارقات تتعلق ببلد تحول إلى معسكر لا مكان فيه للمدنيين إلا باحتقار تام ، حسب وصفه.

ففي الفصل الذي يهمنا المعنون بالرحلة الصحراوية الأولى و الذي تحدث فيه عن بسكرة

و تبدأ رحلته أنطلاقا من باتنة نحو بسكرة مرورا بالقنطرة والتي أطال في وصفها يقول : « عبرنا ذلك الجسر الروماني القديم ، الذي يقع في أضيق منطقة بهذه الشعاب ، فقد ضاقت الشعبة هنا إلى درجة أن الوادي كان يشق طريقه بقوة ، فتندفع مياهه المزبدة عبرها ، ومن المؤكد أن تياره كان سيجرف معه السائح ، الذي يحاول عبوره من هنا لا بد من مكان أعلى ، ثم دخلنا في غابة كثيفة من النخيل ، تختفي وسطها قرية القنطرة المبنية من الأكواخ الطينية ، وكان المسجد نفسه مبنيا من الطين ، وكانت له منارة مستديرة من نفس

المادة ، ان هذه المدينة المبنية من الطوب لتذكرني بقوة بقرى الفلاحين التي تحيط بضفاف النيل حتى النباتات الموجودة هنا تشبه نباتات مصر ، إلا أن هذه المنطقة ينقصها النيل طبعا ، و عوضا عن ذلك كان لدينا البحر ـ بحر الرمل الكبير ، الصحراء التي لاحد لها »[1]
وصف مالتسان الناس و جلوسهم في المقاهي و عاداتهم و تقاليدهم ، ثم شد الرحال نحو بسكرة .مارا بواحة لوطاية ولكنه لم يطل في وصفه لهذه الأخيرة .
و في المساء وصل إلى بسكرة وحسب قوله ـ هي أكبر واحة في الصحراء الجزائرية وكان الطريق إليها ذا طابع واحد ، فالمنطقة خرساء ، والمساحات الرملية رائعة ، يتولد عنها كثيب رملي في بعض الأحيان . ومع ذلك لا ينبغي أن يتصور المرء أن هذه الصحراء جرداء ، فقد كانت على العكس من ذلك في هذا الفصل الشتوي الممطر مغطاة بالأزهار البرية المختلفة و الأعشاب الرائعة . أما المساحة الرملية الجرداء ، التي تمتد على وتيرة واحدة و لا تعرف الأمطار أبدا ، فيجب البحث عنها في الجانب الآخر من الصحراء ، فهناك تبدأ الصحراء الحقيقية التي لا تكاد تعرف الماء .ــ
و قد عرف مالتسان كلمة الصحراء ، و أعطاها وصفا دقيقا ــ كلمة الصحراء تعني السهوب ، التي يشبه نصفها البراري ، ويشبه نصفها الأخر المروج الخضراء ـــ

---

(1) ثلاث سنوات في غرب شمال غربي افريقيا ج3 ص 102

ثم انتقل بنا الكاتب لتعريف كلمة الزاب فيقول : ((ولم تكن بسكرة في العصر الروماني مجرد من أهميتها ، فقد كانت تدعى في ذلك الحين زابا ، وهو الاسم الذي احتفظ به هذا القسم من الصحراء ، فالعرب يطلق على القسم كله اسم الزاب ، ويفضلون في الغالب استعمال صيغة الجمع ((الزيبان)) وكانت زابا في القديم تشكل عاصمة الزابنسية Limes Zabensis التي سميت باسمها ، وكان يحكم هذه المقاطعة ضابط روماني باعتباره قائد قوات الحدود .

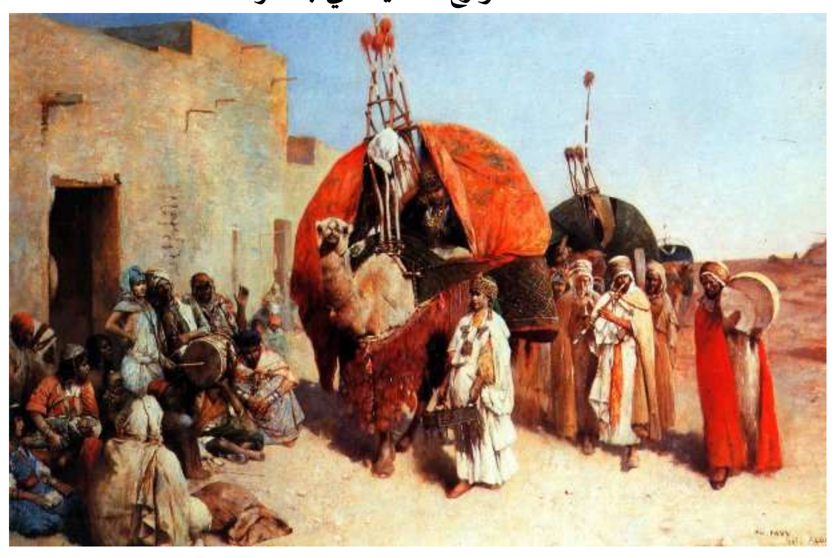
و لا ينبغي الخلط بين زابا النوميدية Zaba Numidiate وزابا الموريتانية السيطيفية zaba Mauritaniae stifensis وهي التي تدعى اليوم المسيلة و تدور اسمها في خريطة الطرق .و المسافة بين الزابيين ليست بعيدة ، وذلك ما ضلل بعض الناس الذين لم يكونوا يعرفون أن هناك زابيتين ، وكانت كل منهما أسقفية في العصر المسيحي ، بل وجدت أسقفية ثالثة اتخذت اسمها من زوايا ، هي اسقفية الوسط الزابية Epis copatus medianorum zabemiurum التي كان مقرها دون شك قرب باتنة الحالية ....)) [1]



(1)المرجع السابق ص 108



أحد الشوارع القديمة في بسكرة



منظر عرس في بسكرة

لم وصل الرحالة هاينريش فون مالتسان إلى مدينة بسكرة ،اتخذ محلا عند عطار محلي يقيم فيه ، و حسب المؤلف لم يكن في وسعه أن ينام في غرفته ولا أن يقرأ ولا أن يكتب بسبب الضجة المتواصلة التي كانت تصله مـن المقاهي العربية المجاورة ، لهـذا قـرر دراسة الحياة الشعبية لسكان المدينة ، ومن ثم يستفيد من هذا الوضع المزعج ، وكان لا بد أن يتم ذلك في المكان الذي تنطلق فيه تلك الضجة .

تجول الكاتب في المدينة فيقول : « و هكذا أمضينا إلى الشارع الرئيسي ، و في نيتنا أن نجلس في أحد المقاهي العربية الكثيرة ، التي كانت تبدو و كأنها تحاصر المدينة ، كنا طبعا نريد أن نبحث عن مقهى ،تتجلى فيه حياة المدينة على الوجه الأكثر حركة و أصالة ، و تحتوي على نفس العدد المتنوع من شاربي القهوة ومن الراقصين و الراقصات ، ولم نستطع اتخاذ قرار حيال الغزارة المربكة ، فأخذنا نذرع الشوارع ذهابا و ايابا ، واكتفينا بمشاهدة المظاهر الخارجية . كانت الشوارع عريضة ، ولكنها لم تكن طويلة ، فبسكرة ليست سوى باريس صغيرة ، وصغيرة جدا ، رغم أنها سميت باريس و لذلك لا أكاد أجرؤ على القول بأن عدد سكانها يناهز الثلاثة آلاف . بيوتها كلها ذات طابق أرضي ، وكانت دار القائد العسكري الوحيدة ، وكذلك الثكنة ثم القلعة ، ترتفع فوق العلو العادي لهذه البيوت التي تشبه جحر حيوان الخلد . وكانت البنيات كلها تقريبا جديدة ، استعملت فيها مواد البناء الفرنسية ،وكان الشارع الرئيسي يحتوي على عدد كبير من

الدكاكين العربية الصغيرة ،وكان هناك عدد من المحلات الأوربية ومخازن يهودية قليلة))[1]

استرعى انتباه الكاتب تلك الأخلاق الحميدة التي يتميز بها المجتمع البسكري، و من ذلك انعدام الاختلاط بين الرجال و النساء، فلا نصادف في الشوارع رجلا يتحدث مع امرأة، و الفتيات اللائي بلغن سن الزواج و تلك المتزوجات لا يخرجن إلا نادرا ، كما لاحظ ان النساء يلبسن الكثير من الملابس، ربما حشمة و لستر أجسادهن حيث لا يرى منهن أي شيء. كما يخبرنا على مراسيم الزواج الذي يتم حسبه "وفق تقاليد غريبة"، فلا يسمح للمقبل على الزواج أن يرى خطيبته، بل أن كل شيء يتم بين الآباء، كما يمكن للشاب أن يكلف والدته لخطبة إحدى الفتيات، أو قد يطلب ذلك من إحدى العجائز مقابل هدايا ومبلغ من المال.

كل هذه المظاهر شدته و لكن ما ملك عليه لبه و خياله ذلك الهدوء وتلك المناظر الساحرة ، وأحس وهو يتأمل النخيل و كأنها أمواج يتابع بعضها بعضا .

و بدلا من أن يحدثنا عن الناس ركز عنايته عن وسائل التسلية و على الأمور الشكلية ولم يحاول معرفة أعماق السكان و دخيلة نفوسهم .

---

(1) المرجع السابق ص 110

وفي الفصل الرابع من كتابه عند زيارته إلى توقرت حط رحاله في واحة سيدي عقبة فيقول فيها : ((ووصلنا عند الظهيرة الواحة الصغيرة سيدي عقبة ،فأحاطت بنا غابة نخيل جديدة لكنها ـ للأسف ـ كانت أيضا معدودة و مسجلة بعناية ، ان كل ما يذكر بالبيروقراطية يقضي على المتعة الشعرية التي استشعرها ، وهذه الواحة تشتهر بقبر البطل والفاتح العربي سيدي عقبة ، الذي استعارت منه اسمها))[1] ثم تابع هاينريش فون مالتسان سيره بعد ذلك نحو السعدة ـ بنطيوس ـ شط الملغيغ ـ ...

وحتى خاتمة هذه الرحلة لم أجد فيها ما يترك أثرا في النفس كما رأينا ذلك في رحلات سابقة .



---

(1) المرجع السابق ص 132

قائمة المصادر

(1)Au pays des palmes Biskra __ Félix Hauttfort __ Paris 1897

.(2) Au pays du bleu Biskra et les Oasis Environnantes_ Jean Hurabielle _ paris 1899

(3)Among The Hill_Folk of Algeria__ journeys Among The shawia of tha Aurés Montains

_M.W.Hilton Simpson __New York 1921

(4). Biskra et Hélouan. Deux stations hivernales et thermales de l'Afrique du nord. Paris,

imprimerie Charles Schlaeber, 1896

(5)The Desert Gate Biskra And Therabouts –S.H.Leeder---London 1910

(6) Biskra le ziban Presentation de G. Marcailhou d'Aymeric et Georges Hirtz.

Imprimeur __Henry Baconnier, Alger,le 15 Novembre 1954..

(7)journal du Route de Henri Duveyrier __ paris 1905

****

(1)دائرة المعارف الاسلامية ج10

(2) الموسوعة العربية الميسرة

(3) قاموس المحيط ج1

(4) الحسن بن محمد الوزان (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ج2، دار الغرب الإسلامي: بيروت،1983، ص 38

(5) إسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى و شواطئها ، م.و.ك الجزائر 1983

(6) هـ فون مالتسان : ثلاث سنوات في غرب شمال غربي افريقيا ترجمة .د.أبو العيد دودو ـ الجزء الثالث .ــ ش.و.ن.ت الجزائر 1980

(7) أبحاث في تاريخ زيبان بسكرة : عبد الحليم صيد ـ مطبعة الوادي 2000

الفهرس العام